

محمود محمود

شمس وليك

مكتبة الشريعة والنشر  
مكتبة الأوقاف وطبعتها بالأمم المتحدة  
للمطبعة النسخية  
مكتبة الشريعة بالعلمية الجديدة





شمس و لیل

تأليف

محمود محمود

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعها بالجمهورية ٩٩٣٧٧

المطبخية النموذجية

٦٥٠ المسكة الشاذية بالطبقة الجديدة



# إهداء

إلى أعزائي الصغار :

« محمود » ، « ود علي » ، « ود خديجة » ، « ود زينب » ...

في وجوهكم الوضيئة ، تتجلى لي مطالع وحى وإلهام . ومن  
بسماتكم ، يترسّل على فؤادي برد وسلام .

وفي ظل طمأنينتي بكم ومحبتى لكم أقيد ما يعن لي من  
حديث نفسي ونجوى .

فما أجدر أن يزجيَ إليكم جدُّكم صحائفه تلك ...  
هديةً ردّ للجميل ...

محمود تيمور



الرحيل

لم يكن على بالنا أن نرتحل إلى هذه البقعة من الأرض «  
 بقعة « الشمس في منتصف الليل » ، فما فكرنا فيها يوماً ،  
 ولا اعتزمنا في شأنها أمراً ، وإنما نجمت الفكرة — في هينة  
 ورقق — يوم خرجنا إلى المطار في ضاحية « القاهرة » ، نودع  
 أجباءً لنا في سفرتهم إلى بلاد الشمال ، يقضون فيها بعض  
 وقت ، تاركين عندنا وديعة غالية هي صغير عزيز عليهم  
 وعليها ، فوعدناهم أن نرده إليهم بعد بضعة أشهر ، والصيفُ على  
 الأبواب .

وانقضت الأشهر بسلام ، ناسخة ظلال الربيع مؤذنة  
 بيوادر الصيف ، فألفيتُني أتخذ الأهبة للرحيل ، وفاء بالوعد ،  
 ووقفت أمام الحقيبة المعهودة — حقيبة الطائرة — أنفض  
 عنها الغبار ، ثم قصدت — أول ما قصدت — إلى صِوان  
 الثياب . أجتذبُ « حُلة السفر » ، تلك الحلة التي لا ألبسها إلا  
 حين أتخذ الطائرة مطية لرحيل ...



يرجع عهدي بهذه الحلة إلى المرة الأولى التي ركبت فيها الجو ،  
فبلغت برّ السلامة والأمن ...

ومنذ ذلك الوقت وأنا أحتفظ بتلك الحلة أيّما احتفاظ ،  
وأحرص عليها كل الحرص ، وأخصها بالرعاية والتعهد ، مدّخرا  
إياها ليوم أتضيق فيه الطائفة ، ولا أكاد ألتبسها في غير ذلك  
اليوم ، ضنا بها على الابتذال .

وإني لأعترف جهره بأنّ مباشر بهذه الحلة ، تسكن إليها  
نفسى ، ويقع في روعى أنى ما دمت أرتديها فلن يصيبنى من مخاطر  
الطيران ضيق ... هى على جسدى درع حماية وصون وأمان ،  
تردّ عني نزق الرياح ، وتؤلف بينى وبين حرس السماء

يد أن الحلة يدركها ما يدرك كل كائن على وجه البسيطة ،  
هى نضمحل على الأيام ، وإني لأراها تريث وتبلى ويویدا  
ويویدا ، فأرى معها عمرى تلحقه الرثانة واليلى ، ولكأنها  
« الجلد المسحور » الذى <sup>(١)</sup> وصفه « بلزك » فى قصة له ،

---

١ - قصة « الجلد المسحور » لبلزك تلخص فى أن شيخنا اشترى جلدا  
سحريا ، كلما مر عليه الزمان انكش وتقلص ، فلشدة تعلق صاحبه به أصابه فى =

يتناقص ويتكش على مهل ، فيعترى عمرٌ صاحبه من التناقض  
والتكش مثل هذا القدر .

ما لي أصل حياتي بحياة هذه الجملة ؟ ...

وما لهذا الوهم يهيم على مشاعري ، وأنا أعلم علم اليقين أن  
العقل يأباه ، بل يصمّه بأنه سُخْف وهُراء ؟ ...

ولكنه الضعف البشري الذي فطرنا عليه ، وسحر الأساطير  
الذي خضعنا له ، حيناً نتشائم ونتطير ، وطوراً نتباهر وتبين .  
ولنا نحن الشرقيين في ذلك أبلغ العذر ، فهذا ميراثنا منذ الحِقَبِ  
الخوالى ، يحيلنا أطفالا أمام سطوة القدر ... ذلك السلطان  
المحجّب المغيب ، الذي نحسّه دون أن نراه ، ونرهبه دون  
أن يُسفر لنا محيّا ، يسترق إلينا الخطأ ، متسربا في أعماق  
الوجدان ، يكشف الخبايا والأسرار  
حقا نحن حيال هذا القدر أطفال ...

---

= بدنه وعمره المكاش وتلص ونصر ... وذلك رمز للضعف البشري ،  
وغضوع عقل ابن آدم للأساطير والخرافات والأوهام ؛ لعدة خونه ونفزه من  
مصيره المحتوم ! ...

ولكن ما بالناس تأتف أن نكون ، أطفالا ، على  
مدّة العمر ؟

وما لنا نكره أن نحيا في رحاب الأوهام والأساطير ،  
مادمنا ندرك بها الوطر من سَكينة النفس وراحة الضمير ؟ ...  
مرحبا بكل وسيلة تكفل لنا أن نصيب الأهداف ! ..  
وتناولت الحلة على بركة الله ، أمسح عليها يدي ، كما  
أمسح على رأس حبيبٍ أَلطفه ، مُعدّا إياها لساعة  
الرجيل

احتوانا المطار في وسط الليل ، فبرزنا إلى الساحة الشاسعة ،  
 مهبطِ الطائرات من كل فجٍّ ، ومرقاها إلى كل مرعى ...  
 وقفت أرجعُ البصر حولي يهولني ما أرى وما أسمع ،  
 لا تكاد تصعد طائرة حتى تصوب أخرى ، والأزيز متواصل  
 يترسل على أسماعنا نغمة عذبة ، نغمة ترضى غرور الإنسان ،  
 ذلك الكائن العجيب الذي ينزع به الطمّاح كل منزع فهو اليوم  
 يقفُ في زهوٍ وخيلاء ، ينظر كيف استحال بساطُ الريح في  
 عالم الرؤى والأحلام ، مركبة من حديد وناز ، تخفق للعيان على  
 رؤوس الأَشهاد .

في أكناف السماء نجوم من فوقك تبصّ ، ومن الطائرات  
 نفسها نجوم حولك تختلج ، وعلى جوانب الأرض نجوم كهرية  
 منتثرة تلتمع ... إنها مصايح الطبيعة ومصايح الإنسان .  
 تتزاحم وتتداخل ، حتى لا تميز بين بعضها وبعض ، وفيه التميز  
 وقد نُصبت كلها في السماء والأرض لخدمة البشرية ،

مناورَ هداية وتبصير ؟ ...

وعلى مقربة منا حلت طائرة ، فقال على صاحي — مرشدُ

المطار الأمين — يقول

هذه طائرة من « الهند » يقودها قتيّ شجاعٌ ، لم يتجاوز العقد

الثالث من عمره ، يُدعى « الخان » ، وله في مغامرات الطيران

حولات تُضرب بها الأمثال

وأردف صاحبي يقول :

لقد بلغت الهند على حدّثة عهدا بالطيران شأواً بعيدا في

مناوبة الجو ، وكان لها فتحٌ مبين في ذلك الميدان .

إيه أيتها الهند العزيزة ، ذات الحضارة الشرقية التالدة ! ...

لقد نضوت عنك اليوم سُبّاتا طال به الأمد ؛ فلم تعودى « هند »

الغطاريف من أقبالٍ يرفلون في الدّمّقس ويكيلون الذهب ،

بل أصبحت « هند » الغطاريف من أقبالٍ الطيران ... لقد نزعت

عنك غلائل ، ألف ليلة وليلة ، واتخذت إهاب الحياة الجديدة

في عصر حضارة الغرب ... سيرى أيّتها الشقيقة الكريمة ،

بل طيرى ... إلى العلاء ! ...

وأذّن المؤذّن بالرحيل ، فتدائنا من طائرتنا السويدية  
الأنيقة ، لا تخلو خطانا من تخوف وحذر ... وكنا في هذه  
السّفرة أسرة تضم ثلاثة من أعزائنا الصغار ، فثلث جياهم  
أتطلع إلى وجوههم الوسيمة الغضة ، مستمدا منها طمأنينة الروح  
وصفاء الشعور ، فما لبثت مخاوفي أن تزايدت ، وأقبلتُ على  
الطائرة في خَطْو جَسُور ...!

هيات أن يُحوّط الخطر حيث تُشرق هذه الوجوه  
النضرة البريئة

يا صفارى الأحياء ...!

ياملائكة الرحمة ...!

بكم ألوذ من كل سوء ، ومنكم أستلهم ثقة النفس ، ورباطة  
الجأش ، وسكينة الضمير ...!

### ٣

التقمّنا جوفُ الطائرة ، وأطفئت المصابيح ، وتأملت أمام  
الآعين هذه الكلمات :

التدخين محظور ! ... ليشدّ كل منكم نطاقه ! ...  
وجعلت أجنحة الطائرة تدفّ ، فنبعث لدفيها دوىً  
وأرخيت جفنى .

هأنذا ألقى أحمال المتاعب عن كاهلى ، وأتخلّى عن الشواغلِ  
والتصاريف التى تحوطنى ، تاركاً إياها خلفى ، ملتصقاً صفو  
الراحة والجمّام ، بادئاً — بحق — عطلة الصيف وإجازة  
العام ! ...

ما أطيّبَ الدعةَ بعد التعب ! ...  
ما أجمل أن يستقبل المرءُ فترة لا يشوبها جد العمل ، وكد  
الفكر ، ومجالدة الأعصاب ! ...

ما أسعد المرءَ بأن يتخفف مما يشوده من الغاديات  
الرائحات فى عيشة الراضية أو غير الراضية ، وفى نظامها الراتب

الدائب ، فينطلق من إساره وقتنا إلى الدنيا العريضة ، وقد فصح ما بينه وبين جذور عتيقة متغلغلة ، جذور تشده إلى يئسه التي يحيا فيها ، وجوه الذى يتنفس فيه ! ...

إنه ليخفّ إلى عوالم أخرى غير عالمه ؛ ليجتلى مشاهد جديدة لم يرها من قبل ، ويتملى وجوها غير التى ألف أن يُطالعها صباح مساءً ، ويصعبى إلى نعمة طريفة تذهب عنه الضجر بنغمته المطولة التى لم تعد تثير فيه انتباهها ولا هيزّة . إنه لينسرح في بقاع تُشهِده الشمس في حُلّة قشبية ، وتُريه الليل في إهاب ليس له به عهد ، وتنشقه من نفحات النسيم ما يُهدى إلى صدره الاطمئنان والانشراح ...

لكأنه بذلك يبدو من حوض مرمرى عظيم ، فينغمس في ماء من ذوّب اللّجَيْن ، يُميط عن النفس صداة الهموم ، ويجلو عن العين غشاوة التبلد والركود .  
حقا ما أطيّب هذا كلّهُ ...

ما أجمله ! ...

ما أسعد المرء به ! ...



إني لأفكر فيه وأتمثله ، وأنا أقيد هذه الخطرات ، في  
تلك الساعة الساجية ، والرفاقُ من حولي نيام أو مُتَنامون ،  
والظلمة الرقيقة تبسط علينا شَملة هفهاقة تلتبس بها حقيقة  
الزمن ؛ فلا ندرى في أية ساعة نحن على وجه اليقين ... أهذه مخايلُ  
الفجر تسبق انبلاج النور الوهاج ؟ ... أم هى قتمة الغروب  
يلوح وراءها الليلُ المُقَمَّر المهبج ؟ ...

تلك ساعة يقف فيها النور والظلمة على الحياد ، أو هما يقفان  
وجها لوجه متأهَّبَيْن للعراك ، مرتقبين اللحظة المُواتية ...  
فلأدعهما يتأهبان ويرتقان ، ولأستمع بهذا الصفاء الذى  
تُسبغه على نفسى تلك الهدنة بين ضجة النور إذا سطع ، ووحشة  
الظلام إذا أطبق ! ...

فى ذلك الجو الساجى ، حيثُ الطائرةُ تحلق فى أجواز الفضاء  
أحس بأنى قد تحررت من كل قيْد ، وأن نفسى تهيم مع الطائرة  
فى مَسراها ، تنعم بعالم حر طليق ...

عالم حر طليق ... ! ؟

يحمل إلى أن هاتفا يهمس فى أذنى ، يقول :

« أين ماترغم لنفسك من حرية وانطلاق ؟ ...  
إنك لَتُمنىً نفسك بأَنْ ترى الشمس في حُلَّة قشبية ،  
والليلَ في إهاب طريف ، وأن تستنشى النسيم بديع النفحات ،  
وأن تشهد من مُتّع العيش ألوانا كلّها تجديد وافتنان ، ولكن  
ثق بأنك لن ترى من ذلك كله إلا ما تريك إياه عيناك ،  
ولا تحس فيما تجد من ذلك كله إلا ما تشعرك إياه نفسك ، وعيناك  
هماهما لا تتحولان ، ونفسك هي هي لا تستبدل بها نفسا  
سواها ... فأنت كما أنت ، أو كما كنت — وإن بُدلت أرضا  
بأرض ، وسماء بسماء — موصول أبدا بما ضيك الحى ، مشدود  
دائما إلى جذورك العتيقة ، تحمل أثقالك حيث تكون ...  
ألست وأنت على عتبة هذه الحرية المزعومة تمسك بالقلم ،  
أو بالأحرى يمسك بك القلم ، آخذا بخناقك ، فيريدك على أن  
تملا هذه الصفائف التى بين يديك ؟ ... ما أشبه جلستك  
هذه فى جوف الطائرة العابرة : تفكر وتُسَطّر ، بجلساتك المألوفة  
فى ذلك الرُكن من دارك ، تتأمل وتسجّل ! ...  
فأنت أنت — كما كنت — سجين فطرتك ، أسير نفسك ،

ينساق بك هواك من حيث تدري ولا تدري ، غَيْرَ قَادِرٍ  
على فَكَاكَ .

لَا تَحْسَبَنَّ مَا يَدُورُ بِخِلْدِكَ مِنْ أَفْكَارٍ فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ مِنْ  
وَحْيِ الْبَيْتَةِ الَّتِي عَاوَتْ إِلَيْهَا بِطَائِرَتِكَ ، فَمَا هُوَ إِلَّا قَدِيمٌ قَدِيمٌ  
نَفْسِكَ ، نَاجِمٌ مِنْ أَغْوَارِ سِرِّرَتِكَ ، يَحْمِلُ بِذُورِهِ مِمَّا تَسْمِيهِ  
أَنْقَالَ عَيْشِكَ وَأَغْلَالَ حَيَاتِكَ ! ...

كُلُّ مَا مَشْهَدُهُ فِي قَابِلِ أَيَّامِكَ تَرَاهُ بَعِينَ مَاضِيكَ ، وَتُلَوِّنُهُ  
بِأَصْبَاحِ يَبْتِكُ فِي صَمِيمِ وَجْدَانِكَ مِنْ هَذِهِ الْبَيْتَةِ شِعَاعَةً مِنْ ضَوْئِهَا  
بَاقِيَةً وَغِشَاوَةً مِنْ ظِلِّهَا ثَابِتَةً ، وَإِنَّمَا لَتَتَرَسَّبَ فِي دَمِكَ ، وَتَتَسَرَّبَ  
فِي حَسِّكَ ، وَتَكْسُوكَ صَبْغَتَهَا رَضِيَتْ أَوْ كَرِهَتْ .. فَإِذَا  
اسْتَطَعْتَ أَنْ تَتَبَدَّلَ مِنْ ثَوْبِكَ ثَوْبًا آخَرَ ، فَمَا أَنْتَ بِمُسْتَطِيعٍ أَنْ  
تَتَبَدَّلَ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ أَدِيمِ جَسْمِكَ ! ...

مَهْمَا تَتَغَيَّرُ بِكَ الْأَرْضُ ، وَمَهْمَا تَتَقَلَّبُ بِكَ السَّمَوَاتُ ؛  
فَأَنْتَ فِي إِهَابِكَ ، رَيْبُ أَمْسِكَ ، نَسِيجُ يَبْتِكَ ، تَحْمِلُ هُمُومَكَ  
وَأَوْهَامَكَ بَيْنَ طَوَايَاكَ . وَإِنَّ تَرَامِيَّكَ بِكَ طَائِرُ الرَّيْخِ إِلَى بِلَادِ  
الْوَأَقِاقِ ! ...

متاعبك جميعها صُرَّةً على كتفك ، لا تملك أن تلقىها عنك ! ...  
إنها كالحدبة في ظهر الأحذب ، يحملها على كمره ، ليس له  
إلى النجاة منها سبيل ! ...

أرأيت إلى الغطَّاس يحتويه صندوقه الزجاجي ، فيضربُ  
به في الموج حتى يمسَّ قِـرارة اليمِّ . وما هو يبالغ من الموج شيئاً  
ولا هو مصيبٌ من الماء بلَّةً ، ترى عينه اليمِّ وهماً كأنها ترى  
ألواحاً من الصور ، أو تتمثل ألواناً من التَّـهاوِيلُ ... فهو  
حبيسٌ صندوقه الزجاجي ، وإن تقاذفت به الغمَّرات .  
شبيهٌ حالك بحال هذا الغَطَّاس تنقل وترتحل جواباً  
آفاقاً ، سباقاً غايات ... ولكنك حبيسٌ نفسك لا محالة ...  
أصغيتُ إلى حديث الهاتف ، وأنا في حيرة وقلق ،  
ولكني ما لبثتُ أنْهَضْتُ به أُجيبه :

« يا صديقي الفيلسوفَ المجهول ... ربما كنتَ على ضوإٍ .  
فيما زعمتَ ، ولكنَّ قولك هذا لا يَنفِي أني في الطائرة أُعْبِرُ  
الجو وأنى مقبلٌ على جديدٍ طريفٍ يُثيرُ الهزة ، ويُبعثُ  
النَّشْوة ، فإن لم يكن يُنسى ، فإنه لا ريبَ يُسَلِّني ... »

فلأعدّ نفسي لهذا الجديد الطريف . ولا استمراره بقدر ما  
يتسعُ له الذرع ، ويأذنُ به الجُهد .

هذه متعة تهيئها إلى الأقدار الموالية ، فلماذا توسوس لي ،  
و تشقشق جولي ، لتفسد عليّ ما أعاجُ أن أصلح من أمري ؟ ...  
إليك عني ! ...



وأشْرَعَتْ البصر من الطاق ، فألْقَيْتُ الطَّائِرَةَ تَسْرَى فِي  
فضاء وسيع تغشاه ظِلَالَةٌ مِنْ لَيْلٍ وَدَيْعٍ ، وَالرَّيْحُ مِنْ حَوْلِهَا رُخَاءٌ  
لَا تَقْلُقُ الْخَطَنُ ، وَلَا تَعَكِّرُ الصَّفْوَ ، فَكَأَنَّ الطَّائِرَةَ فِي تَسْيَارِهَا  
فِكْرَةٌ نَشْوَى تَخْفِقُ فِي فِرْدَوْسِ الْأَحْلَامِ

وَرَجَعَ بِي الْخَاطِرُ إِلَى الْمَطَارِ ...

إِلَى « مِصْر » ... !

لَمْ يَعْدِلْهُمَا مِنْ أَثَرِ ...

هَذَا أَحْسَنُ مِنْ فَوْرِي شَعُورَ وَحِشَةٍ وَانْقِبَاضِ ...

لَقَدْ أَيقَنْتُ الْآنَ أَنِّي قَدْ فَصَلْتُ عَنْ الْوَطَنِ ... بَعْدَتْ

بَيْنَا الشُّقَّةُ ، وَاسْتَبَانَ بَيْنَنَا الْفُرْقَةُ ، فَهُوَ مِنْ قَصِيٍّ ، أَنُودِدُ إِلَى

مَعَالِيهِ بِالذِّكْرِيَّاتِ وَالصُّوَرِ

وَطَنِي ! ...

فِيمَ هَذَا الْأَمْسَى عَلَى فِرَاقِكَ ؛ كَأَنَّكَ إِنْسَانٌ حَيٌّ ، يَجْرِي فِي

خُرُوقِكَ مِنَ الدَّمِ مَا يَجْرِي فِي عُرُوقِي ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ النَّسَبِ

وَلِيَحْمَمَةَ الْقُرْبَى ؟ ...

فيم هذا الحين إلى لِزَامِكَ ، كلما جدَّ بي الرحيل عنك ؟  
ماخطبُ هذه الدِّمعة يَسُدِّي بها جفني حين تخنُّ عني  
مَشارفُكَ ؟ ...

لكأنني بك تشدُّ نياط قلبي إليك بأمراسٍ ، فكلما نأيت  
عن أرضك التَّوَى على القلب ينفطر من وَجْدٍ وتَحَنُّان ...  
ما أنت أيها الوطن ؟ ...

وماذا فيك من سرِّ يهيجُ كوامنَ الشَّجَن ؟ ...  
وهل أنت أولا وأخيرا إلا أرضٌ وماءٌ ؟ ...  
وهل الدنيا على رُحْبها وإختلاف بقاعها إلا مثلك : بَرٌّ  
وبحس ؟ ...

حقا أنت قبضة من تراب ، وغرفةٌ من ماء ، ولكنها  
يختلط بها عبيرُ النفس ، وغرفةٌ يمتزج بها ذمائمُ الروح ... فهما  
تستكن البذرة الصميمة للعالم الشخصية المتميزة ، وعليهما يتجلى  
الطابعُ الأصيل لما نحنُ عليه من ملامحٍ وسمات ...  
ما أنت أيها الوطن إلا أنا في أجلِّ المعاني وأرْحَبِها ، وما أنا

إلا أنت أيها الوطنُ في أدقِّ تلك المعاني وأضيقها ..  
لست أنا إلا بضعةٌ منك ، انفصلتُ عنك ، ولكنّها تدور في  
قلبك مجاذيتك ، وستظل في مسدارها حتى يحينّ الحين ،  
فتفنى فيك ...  
منك انبثقتُ ، وإليك أعود ... لا مفاصلة بيننا ولا  
انقسام ...





وطفقتُ أرُوضَ على النومِ عيني ، ولكن تنافرَ جفناي ..  
وتوالتْ بيَّ الخواطرُ ، فظلمت يقظانَ توالي على مشاهدٍ من .  
سوالف أسفاري ، حين كان العالم لا يعرف للانتقال وسيلة إلا  
بالخبرة يعبرُ بها من العُباب ! ...

واستطرد بيَّ التفكير إلى الماضي البعيد ، أستشف فيه مشاهد  
السفر ووسائل الانتقال على وجه عام ، وأخذت أوازن بينها  
وبين ما هصرنا إليه في عصرنا الحاضر . وساءلت نفسي : هل  
تطورت نفسية الإنسان وعقليته تبعاً لتطور وسائل الانتقال ؟  
وهل ثمة ارتباط بين مُعدّات السفر وبين مَنهَج الحياة  
وأسلوب العيش وطابع التفكير ؟ ...

قدما كان الإنسان يتخذ الدواب في الأسفار والنقل ولا  
يجرؤ على الخروج من بلده إلى بلد آخر إلا في قافلة يلوذ  
بعضها ببعض ، ويتنصر بعضها ببعض ؛ إذ يكون لها من  
التجمع قوة تستعين بها على وعشاء الطريق وما فيه من .

مخاطر ! ... وما كان المرء ليفارق بلده في الأغلب إلا عن اضطرار

ومن ثمّ تباينت الممالك والدول ، لا ارتباط بينها إلا في الندرة ، ولا تعامل إلا بالقدر الضئيل ! ... وعلى مثل ذلك كان أمر الشعوب . يكاد كل شعب يستقل بنفسه ، ويكتفي بعيشه ، لا يعرف من شأن جيرانه إلا ما يتناقله الرحالون والتجار وذوو المغامرات ، ومعظم ما يتناقلون أو هام وأباطيل ... فلا غرو أن يستقر في ذهن كل شعب أنه شعب الله المختار ، وأن بلده أم الدنيا واسطة العقد ... فاشتدت بذلك نزعة الاستعلاء القوميّ ، وغالى كل بلد في التجمع والتكثّل ، حتى اصطبغت تلك العهود ببصغة الفردية والأثرة والأنفة من التعاون ، ولم تقتصر هذه الصبغة على الشعب في مجموعه ، ولكنها تدرست إليه في مختلف فئاته وطوائفه ، فتحزبت زمر ، وتعصبت طوائف ، وانتقلت العدوى إلى الفرد وحده ، فأصبح يستشعر لنفسه من الخصائص والجزايا ما لا يستشعر لسائر خلق الله ! ...

لا يغرّئك ما تطالعك به صحائف التاريخ من قيام  
الإمبراطوريات ، التي تترابط فيها البقاع وتتحد البلدان ،  
فما جمع ذلك بين أمم ، ولا وُحد بين بلاد ، ولما قام عليها حاكم  
واحد تَسنده السلطة ، على أن أمراء الأقاليم كان لهم من  
الاستقلال بالأمم ، ما يشبه سُلطان العاهل الأكبر . وكثيراً  
ما ارتصد هؤلاء الأمراء للفرصة المانحة فإذا هم يشقّون عصا  
الطاعة ، ويأبون أن يكونوا تبعاً لأحد ...

أما اليوم فقد تغيرت الحال ، بما شمل العالم من مخترعات  
في وسائل الانتقال ، ولا سيما الطيران ...

يفضل هذه الوسائل تقاربت الأمم ، وتعارفت الشعوب ،  
وترايل ما كان عالقا بالأذهان من أساطير وأباطيل ؛ فأنكشفت  
الحقائق ، وانتشرت في سرعة البرق ، ولم يعد كل مواطن يعدُّ  
لده أمة الدنيا وواسطة العقد ؛ إذ تشابكت المصالح ، وتشاركت  
الأهداف ، وتيسّرت المنافع ، وأيقن الناس بحاجة بعضهم  
إلى بعض ، فجعلوا يؤمنون بفصل التعاون ، ويتنسّمون روح  
الأخوة الإنسانية في أطراف المعمور .

فإذا كان طابع العهود الغواير — قبل اختراع وسائل الانتقال الحديثة — طابع الأثرة والعزلة والتكشمش ، فلا جدال في أن طابع العهد الجديد هو طابع النزوع إلى التعاون المشترك بين الدول بعضها وبعض ، وكذلك هو بين أبناء الوطن الواحد على اختلاف الطوائف والشبّيع .

وكان التنقل قديماً يتّسم بالبطء والاتّساد ، ومن ثمّ أصبحت سمات التفكير والعقل هي التروية والأناة ، وهي الفحص الطويل قبل البتّ والحسم ، ولم يكن للزمن هذا الحساب الذي نقيسه به اليوم ، فالوقت منفسح أمام المسافر ليشهده ما يجوز به في تمهل ورقق لا يقنع بالطوقة ، ولا يسكن إلى الإجمال !...

فأما الآن فالمسافر بالطائرة لا يأذن له وقته بالتراخي . في المشاهدة ، والإمعان في التفاصيل . فاضطره ذلك أن يرهف من فطلته ، ويذكي من يقظته ، ويتوخى الجوهر والصميم ، حتى يلتقط أكثر ما يلتقط في الوقت القصير والفرصة الخاطفة ، ومن ثمّ اكتسب المسافر سرعة الانتباه ، وقوة الملاحظة ،

وتعود البتة في الأمور في غير تردد ، واستخلاص النتائج في غير إرجاء . وتعلم كيف يستصفي زُبدة المتعة في طرفة عين ، حتى لا يرجع بصفقة المغبون .

وكان المرتحل قديما إذا أزمع السفر خُل من المتاع ما شاء . فلو قدر أن ينقل معه داره لفعل ؛ فما كانت السَّفرة مغيبَ أيام أو أسابيع وإنما كانت الرحلة تمتد شهورا وسنين ، وربما خرج المسافر من وطنه شابًا فلا يعودُ إليه إلا وقد تشيَّخ ، وقد يترك الظاعن بلده . فيكادُ يودعها إلى غير رجعة ، يأسا من امتداد العمر به حتى يثوبَ وسوء ظن بما عسى أن يلحقه من أحداث الطريق . وكثيرا ما يستقر به المقام في البلد الذي ينتقل إليه ، فيتزوج فيه ويُنجب ويتخذ منه مَهْجَرًا . لا يرحله ما عاش

ولكن المسافر اليوم يختلفُ كلَّ الاختلاف عن نظيره . بالآس ، وبخاصة فيما يحمل من متاع فلم يعد متاعُ المسافر تلك الكومات الضخمة التي تشمل التافة قبل الضروري . النافع ، ولم يعد للسفر طابعُ الكثرة والتعقيد والنزوع إلى الكلفة .

والرفاهة ، فالطائرة تلزم راكبها أن يختصر متاعه ؛ إذ تجعل له زينة لا يعدوها بحال ، فلا بد له إذن من بجانبه التكلف والزخرف ، ولا بد إذن من إظهار البساطة والبُسر ، فالأشياء مقومة عنده بما لها من نفع وجدوى ، لا بما يكون لها من مظهر وزُوق . على أن ذلك هو روح العصر الحديث في مختلف مرافق الحياة ؛ فلا غبرو أن يكون بجانبه في متاع السفر أبرز وأوضح ، واتباعه أحق وأولى .

وهل يستطيع رفيق الطائرة أن يحمل معه ما يريد من مختلف الحُلل التي تقتضيها حياته في مجتمع الناس ، مثل حلة السهرة وحلة الحفلة وحلة الاستقبال وما إليها من حلل المراسم ؟ ... ألا يفضل أن يستبدل بها كلها معطفا يزود عنه أذى البرد ، ويحميه من وقع المطر ؟ ... وهل يحجم عن أن يتخذ لرأسه « طرطورا » يتقى به الالهوائية والعواصف ، تاركا ضروب القبعات العالية رمز الابهة والبذخ ؟ ... ولم لا يرضى المسافر بذلك والعالم كله يجنح إلى البساطة ويتخلى عن التعقيد ، فهو يتخفف من كل المظاهر التي كانت تسود البرقشة

والتزويق ، وهل أدلّ على ذلك من أن حلة السهرة وما شابهها من حلل المراسم قد أخذت تضمحلّ الآن وتزایل فلم يعد لها من الاعتبار ما كان من قبل .

وجليّ أن الأدب قد تأثر بهذا المنحى أبلغ التأثر ، فأضحت براعة الأديب المسرحي الموفق في أن يقدم لك لوامع تجمع الخطوط الأصلية للصورة والمشهد ، وتركزُ المعالم البارزة للشكرة والموضوع . بحيث تغنيك البارقة عن أنوار متوهجة ، وتكفيك الخططة في جلاء ما يريد الكاتب أن يقفك عليه ، دون تزيد في الإبانة . واستكثر من الوصف والكشف والإيضاح .

كانت هذه السوانح ترف على خاطري ، وأنا مسبل الجفنين . لا يملك النوم عيني . وما إن رفعت جفني حتى بهرني ضوء النهار ، فأرسلت بصرى من الطّاق ، فألفيت الشمس في مستهل إنشراقها الباسم ، وقد ازدان الأفق اللّازوردى في الفسيح بخيالة قرمزية زاهية ، تمرق عليها الطائرة كأنها يراعة الليل في شفقها تالّق . . .

## ٦

ظفّق الركب يستيقظ ، فقد حان ميعاد الفطّر ...  
ولاحت الصواني الرشقة عليها ألوان خففة من أطعمة الصباح ،  
ولم نكد نفرغ من طعامنا حتى أنهى إلينا عمال الطائرة أننا مقبلون  
على « برنديزى » ...

ثم توالى تصويب الطائرة وتصعيدُها مرات ، وفي كل مرة  
تتلاحق إلينا ألوان الأطعمة والأشربة في مقاصف المطارات ،  
فالأطعمة بين شطائر وفطائر ، والأشربة بين مغليّات .  
وفورات ...

حسبك الله يا شركة الطيران ...!

لكأنك تحسّيننا أطفالاً . شرهين لا يملّثون النصائح  
والنشاغِب ؛ فلا تدبر لك معهم إلا أن تعاجلهم بأشتات  
المطاعم والمشارب ، مُبرّقة ملوّنة ، فإذا هم عنك راضون  
لا يتصايحون ولا يتشاغبون ...!

وكنا في كل مطار نهبطه يتداولنا عمالُ « الجمارك » ورجال



الشرطة ، تطالعنا منهم وجوه عليها ابتسام مقتصب وقُطوب  
حريج ، ومن عيونها تبعث نظرات تتنازعها الصرامة والرفق ،  
وفي أيديهم أختام تعلو على صفحات الجوازات وتهبط في جد  
واهتمام ! ... فإذا سألت نفسك : ألم هذه الإجراءات قيمة  
ونفع ؟ لم تطمئن إلى جواب إلا أن يفترقا فترك عن ابتسامة  
ناصلة ، أو تختلج كفك اختلاجة مآخرة !...

على هذا النحو جزنا ، بيرديزي ، و « روما » و « ميلانو »  
و « ميونيخ » و « فرنكفورت » و « هامبورج » ... بلاد وأمم  
لم نلجها إلا من سماواتها العالية ، أو في مطاراتها المُسَوَّرة ، كما  
تُلحح الأطياف والأشباح خطفا ، ونحن كالمعتقلين في مركبات  
السجون ، نتقل من مثابة إلى مثابة ، غير مشاهدين مما حولنا شيئا  
إلا ما يسمح به النظر من طاقات هذه المركبات ! ...

وأخيرا حططنا رحالنا في « كوبنهاجن » ، والوقت يُرِنُّ على  
منتصف الليل ...

علينا أن نقضي الليلة في عاصمة « الدانمرك » ، لتقائنا الطائفة  
ظهر غدا إلى « أَسْكُهُم » ، ، ولم يكن هذا في التقدير

والحسبان ، ولكن برّناج الرحلة طراً عليه شيء من التعديل ،  
للملاسات جدّت في الطريق فكان على شركة الطيران أن تهىء  
لنا المبيت ، ولم يكن ذلك عليها بالأمر اليسير ، فلكي يتسنى لك  
أن تحتويك مرقد في عاصمة « الدانمرك » ، يجب أن يسبق لك  
حجزه منذ أسابيع ، ولكن عمال الشركة أكتبوا على السماعات  
التلفونية يتقصّون ويتعرفون ، وبعد لآلئ عثروا على منزل  
عن كئيب من محطة السكة الحديد ، فأقلّتنا إليه السيارات ،  
تطوى الشوارع المتألّقة تحت رذاذ المطر ...

ولغت بنا السيارات غايتها ، فوقفت أتبين ما حولي ، فلم  
أجد نزلاً أو ما يشبه النزول ، إلا أن السائق تقدّمنا بحمل المتاع ،  
فبعناه في دهشة ، فسار بنا على نشزٍ من الأرض يشبه الطّوار  
وانتهى بنا السير إلى درّج هبطناه ومثلت لحظة أتثور على ضو.  
المصابيح المنتشرة ما سمّاه السائق نزلاً فإذا نحن حيال مبنى عجيب  
لم تقع على مثله عيني ، مبنى مخفوض ضيق العرض ، يمتد طوله  
امتداداً ينحسر دونه البصر ، كأنه قطار من قطارات السكة  
الحديدية قايع في مكانه ينتظر راكبيه ، أو كأنه أفعوان يأن

الطول قد تغطى بجوار الطريق يَشُدُّ الراحة والاستجمام...  
وفي آخر الدرج أستقبلتنا حديقة رشيقة، ما لبثت أن  
أسلطنا إلى الباب، فما أسرع أن التَقَمْنَا الشَّعْبَانِ!...  
ودخلنا ردهة أنيقة تنشق منها طريقة حسبتُ وأنا أسيرُ فيها  
أنى فى نفق محتفر فى قاع الهر، وعلى جنى الطريقة تترافف  
حُجُرَات ناصعة البياض، طول كل منها قِصْدُ حطوتين،  
وعرضها كذلك، أيسرَّتها قائمة بعضها فوق بعض، كشأن  
الأسرة فى بعض البواخر أو مركبات النوم فى القطارات،  
يبد أن الحُجُرَات على صَفَرها وافية بالحاجة، أنيقة المظهر.  
وأشهد أننا لقينا فى هذا السُّرُّل — على غرابة بناءه، وضيق  
حجراته — كل ما يرجوه النزول من راحة، وقد أمضينا فيه  
ليلتنا هاتين... وجيء إلينا فى الصباح بالقطور، فإذا هو لا  
يقل — فى وفرة طعامه، وجودة إعداده — عن مثيله فى  
الفنادق الفاخرة!...

وعند الظهيرة كنا فى المطار لسلفى طائرة فنلندية ذات  
محركين، فارتقبناها ونحن ببسمل ونحو قل، ونضرع إلى

الله أن يَشْمَلنا بِفيضِ رحمته ! ...

إننا ضيوفك ، أيّها الفنلندية الصغيرة ، ساعتين ، لتبلى بنا  
عاصمة « السويد » ، وقد أودعناك أرواحا وفلّادات أكبادنا من  
حولنا ... أعانك الله على حفظ الوَدِعة ، ورعاية الأمانة ! ...  
وما إن تصعدت بنا الطائرة ، حتى أسرعْتَ تعلى غوارب الجو  
فرعونة وطبش ، وهى تعابثُ الرياح في مدارج السماء ، قهرُها  
الرياحُ هَزَّاتٍ تتعلق بها أنفاسُنا من خشية وذُعر .

ولاحت لأنظارنا مشارف « استُكهُلم » من خلال تفاريح  
السحب ، ثم جعلت تتوضح . فحيثما أدركنا أبصارنا رأينا الخُلجان  
نناثر ، والجزر تكسوها المُرُوج الخُضر ، وكأن عطرها  
الفواح يتطاير إلينا في أعطاف النسيم ، يُحينا بنفّحات تنعش  
الموَاد .

وهبطت بنا الطائرة تنغى الأرض المطمئنة ، فنزلنا نستقبل  
أحسّاءنا الأعزاء الذين من أجلهم رحلنا ، ولإياهم قصدنا ...  
وكان لقاءً شتق أنيس ! ...

يلاد الشمس في منتصف الليل

كان أول ماتوخيت من عمل — بعد أن اطمأن بي المقام  
في الفندق — أن أزور « المفوضية المصرية » تلبية لدعوة  
كريمة تلقيتها من وزيرنا المصري الميسماح ...

والمفوضية تشغل شقتين فخمتين ، من مبنى عظيم في  
شارع مديد يحاذي البحر ، يتوسطه ممشى للهرجّلين ظليل ،  
تهدل عليه أفنان الشجر ، وإنه في الحق لمنزّه من أجمل  
منزّهات المدينة ، وما أكثر المنزهات في عاصمة « السويد » ...  
زائلت السيارة متجها إلى المبنى ، فطالعتني لافتة رشيقة  
خفّق لها قلبي ، حين قرأت ما هو مكتوب عليها بالفرنسية :

« المفوضية المصرية — مواعيد الزيارة من العاشرة صباحا  
إلى الواحدة بعد الظهر »

ومثلت هنيئة تجاه اللافتة ، أنملى اسم « مصر » الجيدة ، وقد  
طابت نفسي بأنه مهما تنأى الديار ، ويتباعد المزار ، فإنى ملاق  
في مطارح الغربة بضعة من أرض الوطن ، بضعة من « مصر » ،

هي من روحها الصافية نَفْحة ، وهي من طابعها الاصيل لَمَحَة ! ...  
وأردت أن أدخل ، فألفيتُ حِبالَ باب صخَمٍ موصد ،  
فعمدتُ إليه أحاول أن أفتحه ، مسنداً كل تجربة ، فاستعصى  
عليّ . وإذا السائق يهرع إلى . وإذا هو يعالجه في يسر ، فلا  
يلبث أن يفتح ، وحنثت الخطأ ، فاحتوتني ردهة صغيرة ذات  
باب آخرٍ مقفل ، فسق إليه السائق يفتحه كما فعل بالباب الأول ،  
ودخلت أرتقي بعضَ الدرج ، فاعترضني باب مغلق أيضاً . عجا  
لهذه الأبواب تحجب المقوضية عن قصّادها ، ثلاثة أبواب  
محوطة بالألغاز والأسرار ، عليك أن تكنته طلاسماً قل أن  
تسطيع النفوذ منها ، فما أشبه المقوضية بحصن لغيره يف من  
الغطارقة العظام ، لا يُدبح مصوّته إلا لمن تُلقى إليه «كلمة السر» ! .  
ثمّة أضرار بجوار الأبواب يجب أن تدرس نظام عملها  
وتمّة لوح محلي بالأضرار أيضاً عليه أسماء القاطنين في هذا المني ،  
وعن كثيرٍ من هذا اللوح طاق عليه شبكة كثيفة ، منه يترسل  
صوت البواب دون أن تراه ، عليك أن تخبره باسمك ، وتبسط  
له الغرض من زورتك ، فإن أذن لك انفرجت الأبواب

ترحبُ في طوع بك ...

إن البواب وأتوابه في الغموض والخفاء سواء ، ليس هو  
إلا طيفاً من الأطياف في عالم مسحور ، بل هو أقرب ما  
يكون شهباً إلى « الرجل الحني » في « قصة ويلز » ذلك الذي  
لا تملك أن تأخذه العين ، وإن كان صوته يقرع السمع ! ...  
بواب مبنى عظيم ، لا ترى له سمته على الإطلاق ...  
أين هو ؟ ...

إنه في مثابه الأنبة : خلف الطاق المشتبك ... أمير خطير  
يمارس سلطته في أنفة وترفع ؛ فهو على أريكته مطمئن وراء  
الحوائط والجدران ، تنتقل أنامله بين الأزرار حواليه ، فما أسرع

---

١ عند ورد ذكر « الرجل الحني » في قصة « ويلز » وما الرجل الحني فيها  
سوى شخصية خرافية تعاملت دواء خاماً ، فأضحى الشخص يسمع صوته ، ويأتي  
أحدنا ، ولكنه طيف من ملابس لا يرى بداخله جسد آدمي ، وشبه بهذا  
البطل الرومي ، بطلنا العرق ، لابس « طاية الإخفاء » تلك الشخصية الأسطورية في  
ترائنا البعيد . والحق أن الخرافات سلطانا على النفوس أدركه رجل العلم الحديث  
فأرونا في « معرض باريس الدول » دمة العلم وحيلة من حيلة السلية ، فملطوا  
نوما من الأشعة على الشخص ، تخفيه من العيون وإن كان مسموع الصوت ، يأتي  
بالأحداث ، وكأنهم في هذا المعرض أرادوا أن يحفظوا الأساطير تحت ستار  
من نظريات العلم وتجاريه الأسبعية .



أنا تلين له مغاليق الأبواب !...

وارتسمت في خاطري على الفور صورة السيد البواب في  
بلدنا العزيز ؛ اذ يقضى الساعات الطوال مخشبا على عرشه الخشبي ،  
لا هو روح ولا طيف ، ولكن كومة متجسمة تملأ الأبصار ،  
وانه ليجلس في لمسة عشيرته وأقرانه ؛ كأنهم في ندوة أنيسة ،  
يتشرفون الشاي ، ويتطارحون النقاش ، ويسترسلون في  
مفاكهات وأضحاك ، ثم يقبلون آخر الأمر على كتاب دلا  
الخيرات ، يجهرون بقراءة أوراده في تخشع وابتهاال ...

إن بوابنا في مصر يبدو للأنظار قبل أن يبدو المبنى الذي  
يقوم على حراسته ، بل إن المبنى ليتضائل ويتزايل خلف جرم  
البواب في تنفخه وتشمخه .

دخلت المفوضية يستقبلني نفر من المواطنين الكرام ،  
يعملون هناك جاهدين على أن يكون لوطنهم في ذلك البلد  
الناق صوت مسموع ، وعلى وجوههم تنجلي سماحة واستشارة ،  
فهم يمثلون في أمانة وصدق إشراق مصر ، وصفاءها ، وما  
يعتلج في جنباتها من آمال جسام .

في رسالة مجملة من رسائل التعريف التي تنثر على السُّنَّاح من ضيوف « السويد » ، نقرأ هذه المعلومات الطريفة :

١ - الشعب السويدي من أكثر شعوب الأرض تجانساً واندماجاً ؛ فليس فيه دمٌ أجنبيٌّ إلا بمقدار .

٢ - الشعب السويدي أطول شعوب الأرض قامّة ؛ فإن متوسط طول الرجل خمس أقدام وتسع بوصات .

٣ - الشعب السويدي من أقدم الأمم الأوربية حضارة ؛ فجَسَدُهُ عريقٌ مُؤَثَّلٌ ، وعمره يستغرق من السنين عشرة آلاف .

٤ - الشعب السويدي لا يتعجل الزواج ، بل يؤخره إلى مرحلة الرجولة والنضج ، ولكن الزوجية على الرغم من ذلك يسرع إليها الانقصاص في أغلب الأحيان .

٥ - الدولة السويدية من أوائل الدول التي اصطنعت الاشتراكية في نظام الحكم .

هذه المعلومات — على ضآلتها — تكشف لنا جوانب من شخصية السويدي ذات شأن ...

فالتجانس والاندماج جمل الأمة السويدية طالبا واحدا في المزاج والعقيلة والهدف . وطول القائمة كان له أبلغ الأثر في وإعية السويدي الباطنة ؛ إذ بعثت فيه نزعة الإباء والشمم ، وجنحت به إلى ما يشبه الاستيحاش ، حتى لتحسبه بادىء بدء أبا عنجبية وكبرياء ، وما هو بذلك ، فإنك ما تخاطله ، حتى يلين لك جانبُه ، وتتجلى دمائُه ...

واعتراز السويدي بتأصل تاريخه وتأثله مجده أوحى إليه الاستمسك بمأثور الأوضاع وموروث التقاليد

ولعل شيوع الطلاق في الأسرة السويدية مرده إلى ذلك النزاع النفسى بين التحفظ والانطلاق ، فالخلة الأولى تستأنى بالسويدي في عمله ، لا يتهور ولا يسطيش . والخلة الأخرى تهفو به إلى التحرر من قيود الزواج ، ولا بقاء لهذه الفوضى التى تهز كيان الأسرة هنالك . فلا بد من استقرار ينتظم العلاقة الزوجية ، وفق تطور المدينة الحديثة ، على نحو يلائم نفسية الشعب .

ولقد كان من أثر اصطناع الاشتراكية في نظام الحكم السويدي ، في وقت مكر ، أن استتب روح الألفة بين طبقات الشعب ، وشاعت العدالة الاجتماعية والاقتصادية في شتى جوانبه ، وأطمأنت الحكومة إلى العمل في حكمة واتزان ؛ فلا تفريط ثم ولا إفراط ، يرتفع البناء على الصالح من أسس الماضي ، مستوفيا مقتضيات التطور والتجديد .

ومن مظاهر التزاوج بين المحافظة والتحرر في السويد بقاء النظام الملكي فيها غير مقوض ، وما كانت الملكية لتبقى هالك لو لم تكن مقيدة ، ديمقراطية إلى أبعد حدود الديمقراطية الصحيحة ، فالملك السويدي يملك ولا يحكم ، وهو يتجافى ما وسعه أن يتجافى عن بذخ الملوك وترف العروش ، وقد نزل عن معظم ما كان له من قصور ورياض وضياع ، وأصبحت ثروته لا تزيد على ثروة مواطن من الأوساط ، وهو في هذا المسلك يضارع قريبه في « النرويج » ، و « الدانمرك » بل في « هولندا » ، و « إنجلترا » ... أولئك ملوك تقف بهم أمهم وحكوماتهم عند حدود مرسومة ، وهم لا تمتد بهم أطماعهم

وراء هذه الحدود .

وتتوضح سياسة الاعتدال عند السويد ، فيما فرضوه من قانون على الخمر ، فلم يحظروا ولم يبيحوا ، ولكن اتخذوا بين ذلك سيلا هالهم ماجرته إباحة الخمر من فشو الجرائم وفساد الأخلاق ، فأرادوا أن يوائموا بين الولع بالشراب والكف من شره المستطير ، واحتالوا لذلك بأن أخضعوا الخمر لنظام البطاقات ... لكل مواطن قدر مقسوم لا يعده ، فإذا شاء أن يشرب الخمر خارج داره كان ذلك في المطاعم ، مع الوجبات في أوقاتها المعلومة ، فما يجوز لك أن تطلب كأسا من شراب إلا إذا كنت في مطعم تصيب غداءك أو عشاءك . وبهذا التدبير زاوجت الحكومة بين الحد من الشرب وبين التوق من مغبة الحظر المطلق . فنجحت النجاح كله فيما أخفقت فيه ، حكومة « الولايات المتحدة » بالأمس القريب ؛ إذ حرمت الخمر على الإطلاق ، فراجت على الأثر تجارة الأشربة الرديئة والفاسدة في السوق السوداء ، واعتاض الناس بالمغيبات الضارة والمخدّرات الويلة ، فانعكست آية الحظر ، وساءت

الحقبي . فلم تجد الحكومة مفيضا إلا أن تصافى الخمر ، وإلا أن  
تجلى بين الكئوس والناس .

و « السويد » بلد نصفه أو أكثر من نصفه غابات وأحراج ،  
فلا غرو أن يكون الخشب ومنتجاته ومشتقاته من أكبر مصادر  
الثروة القومية فيه ، والمزارع هنالك تبلغ نحو العشر  
من مساحة الأرض ، وللأنهار والبحيرات مثل هذا القدر ،  
وللمراعى أقل من ثلاثة في المائة .

وأكثر شيء انتشارا في « السويد » هو « التلفون » . فإن  
عدد آلاته يزيد على ثلث السكان ، فثمة مليونان ونصف  
مليون من هذه الآلات لسبعة ملايين ، هم أهل « السويد » ،  
وكانت « السويد » إلى عهد قريب بلدا زراعيلا يعرف غير  
الزراعة موردا للثروة ، على قلة المزارع ، فتغلغل الفقر ،  
وتخلفت الأمة ، حتى بدا فيها عهد « التصنيع » ، وسمت إلى استغلال  
ما في المناجم والغابات من كنوز فإذا « السويد » في قصير من  
الزمن ذات مصانع ومعامل تملأ الأكفاف ، وإذا الأمة صناعة  
تنقلب في أعطاف الرفاهة والتعميم

ما أشبه الأمة المصرية في هذه الناحية بأمة «السويد»  
شكونا من مثل ما شكّونا ، ونعالج أمرنا اليوم على نحو  
«ما عالجوا» ، ولقد بدأت «مصر» وثبتها في هذا المدى في طماح  
وجد وذاب ، وما أسر الغايات على دائب تلمّوح ...

## ٣

ما أعجب تلك الظاهرة الطبيعية التي تتميز بها بلاد الشمال  
إذ يمتد النهار في أشهر الصيف ، فلا يزال ينتقص من أطراف الليل  
حتى ليكاد ينسخ آيته في الكون ...

إن ضوء الأصيل يظل هنالك مضروب الرواق على جوانب  
الآفاق ، لا يبرح ولا يتزحزح . فإذا انتصف الليل هبطت ظلة  
حفيفة رقيقة ، لا تلبث أن تتشعّع متزايلة أمام ابتسامة الفجر  
المبكر ، وإنها لا بتسامه تؤذن بضحكات الشمس في عرض السماء  
تجرّر أذيالها المعصفرة .

إنك لتضيقُ حقاً بذلك النهار المكسّال ، بل ذلك القعيد  
العبيد يتشبّث بمجلسه لا يتحاجل عنه ، يفتاتُ على الليل غير آبه ،  
ويغصبُ حقّه في جسارة واجترأ . والليل واقفٌ منه وقفة  
الصاغر الذليل خلف الأفق ، ينتظر مسترقاً في الحين بعد الحين  
نظرة الحق إلى ذلك النهار المستبد الغشوم ، وهو سادر في



غُلَوَاتِهِ ، لا يَأْذَنُ اللَّيْلُ فِي الظُّهُورِ إِلَّا قَرَّةً مُتَضَائِلَةً يَتَعَثَرُ فِيهَا  
الدُّءُ بِالْخَتَامِ .

إِيه يَا لَيْلِ ! ...

مَاذَا أَبْطَأَ بِكَ ، وَمَاذَا قَبِدَ خَطُوكَ ، فَاسْتَوْحِشْتَ الدُّنْيَا  
لِظُلْمَتِكَ ، وَشَاقَهَا مَا تَنْعَمُ بِهِ مِنْ سَكِينَتِكَ ؟ ...  
حَقًّا ، خُلِقَ الْإِنْسَانُ أَلَوْفًا ، وَقَدْ عَرَفْنَا اللَّيْلَ يَخْلِفُ النَّهَارَ ،  
بِذَلِكَ جَرَتْ سَنَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَمَضَى عَلَيْهَا رَكْبُ الْأَيَّامِ فِي  
سِيرِهِ ، فَأَنَا هُنَا أَتَفْقِدُ الظِّلْمَةَ ، وَأَشْعُرُ لِفَقْدَانِهَا بِالْوَحْشَةِ ، وَأُرْتَقِبُ  
مَهِيْطَهَا سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ

إِيه يَا لَيْلِ ! ...

أَيْنَ أَنْتَ هُنَا مِنْ لَيْلِ الشَّرْقِ الْعَتِيدِ ؟ ... ذَلِكَ اللَّيْلُ الْعَظِيمُ  
الَّذِي يَصْبُو الْمَغْنَى الشَّرْقِيَّ إِلَيْهِ ، فَيَفْرَغُ لَهُ بِالْحَنَانِ وَأَنْغَامِهِ ، يَسَاهِرُهُ  
وَيَسَاهِرُهُ ، وَيَصَافِيهِ وَيُنَاجِيهِ ، وَبَعَيْنُهُ يَفْدِيهِ ! ...

إِيه يَا لَيْلِ ! ...

أَيْنَ بَرِيقُ نَجْمِكَ الْأَلَاةِ ، وَبَهْجَتُهَا الْفَتَانَةِ ؟ ... إِنَّهَا  
لَتُنْدُو هُنَا شَاحِبَةً مُسْتَخْدِيَةً فِي ذَلِكَ اللَّامِ الْهَزِيلِ ! ...

إيه يا ليل ! ...

أنت ها شيخٌ هاربٌ ، وخيالٌ ناصل ... حياتكَ لحظات  
نحوَ أطف ، أما أنتَ هنالكَ في سَماءِ الشرق ، فإنَ حياتكَ تطولُ  
وتمتد ، وما أُحِلاها من حياة ! ...

إيه يا ليل ! ...

الصَّبُّ الوَهلان من بَنى الشرق ، يلوذُ بأستارك ، ويركن  
إلى جوارك ، تَلدُّ له فيك الخَلوة والمناجاة ، ويَطيبُ له معك  
التوجُّع والشَّكاة ... حَضُنُّكَ عليه في وجده وشجوه حنون ،  
وصدرك على أسرارهِ وطواياه أمين .  
نهارى نهارَ الناسِ حتى إذا دجا .

لِيَ اللَّيْلِ هزَّتْني إِلَيْكَ المَصَاجِعُ  
أَقْضَى نهارى بالحديث وبالمنى

ويجمعنى والهمم بالليل جامعُ

إيه يا ليل ! ...

أنتَ هنا في بلادِ الشَّمال بين قومٍ لاجئةَ بهم إلى جوِّ  
الغُفَايا والأسرار ، فهم يَأْبُونُ المتعة وراءَ الأستار ، وهم

يَنْشُدُونَهَا صَرِيحَةً جَهْدَةً فِي أَوْضَحِ الشَّمْسِ وَرَائِعَةِ النَّهَارِ ...  
العاشقُ يَتَرَفَّفُ قُبْلَتَهُ كَيْفَمَا شَاءَ ، عَلَى أَى نَحْوِ شَاءَ ، تَحْتَ  
الْجَمِيلَةِ أَوْ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، فِي مَسَرِّى الْهَوَاءِ أَوْ فِي بَحْرِ  
الْمَاءِ ، لَا سِتَارَ يَطْوِيهِ ، وَلَا ظَلِيلَةَ تَخْفِيهِ .

أَنْتَ هُنَا بَيْنَ قَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِالْمُنْتَعَةِ السَّافِرَةِ ، وَلَا يَعْرِفُونَ  
مُدَاعَاةَ لِّلْإِحْتِجَابِ وَالْإِحْتِشَامِ ... وَلَمْ الْخَفَاءَ فِي الْحُبِّ ، وَهُوَ  
تَحْتَهُمْ غُرْفَ لَا حَيَاءَ فِيهِ ، وَالْثَفَ لَا نَكِيرَ عَلَيْهِ .

الْحُبُّ هُنَا شَأْنٌ طَبِيعِيٌّ ، يَنْمُو وَيَتَرَعَّرُ فِي الضَّوِّ الْوَضَّاحِ ،  
وَلِإِنَّهُ لِحُبِّ هَادِيٍّ لَطِيفٌ يَشْفَى وَيَرْقُ ، كَأَنَّهُ نَسِمَاتُ  
الْأَصِيلِ ، تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ طَمَأْنِينَةً وَتَهْدِي إِلَى الْقَلْبِ رَاحَةً ...  
فَأَيْنَ هُوَ مِنَ الْحُبِّ الشَّرْقِيِّ الْعَارِمِ . ذَلِكَ الَّذِي يَعْنِفُ  
يَصَاحِبُهُ حَتَّى يُذْيِبَهُ ؛ كَأَنَّهُ لَفَحَاتُ الْهَجِيرِ الْمُتَضَرِّمِ ، تَذْرِفُ  
لَهُ الْأَعْيُنُ سَاكِبَ الدَّمْعِ ، وَيَتَفَطَّرُ فِيهِ الْقَلْبُ مِنْ حُرْقَةٍ  
وَالْتِبَاعِ ، وَيَنْشَقُّ بِهِ الصَّدْرُ مِنْ تَأَوُّهِ وَزَفِيرٍ ؟ ...

مَا أَشْبَهَ الْحُبَّ هُنَا فِي الشِّمَالِ بِالْحُبِّ بَيْنَ زَهْرَةِ رِفَافَةٍ  
وَقُرْفُورٍ وَثَنَابٍ ... لَا يَكَادُ ذَلِكَ الْفَرْفُورُ يَهْطُ عَلَى فَنَنِ

يودعه القبلّة العَجَلِي ، حتى ينطلقَ في مَرِجٍ يتغنى ! ...  
فهل تقنع نحنُ الشرقيين بمثل هذه العاطفةِ الهِسَّةِ التي تمر  
كخطفةِ البرقِ وطرفةِ العينِ في هَوَاةِ ولين ؟ ...  
هيهات ذلك هيهات ! ...

فليدعْ لنا الغربُ ليلنا الطويلَ الموصولَ ، حيث نهم  
أخيه مع الظلمة في مصافاةٍ ومناجاةٍ ، وحيث نستشعر فيه للأشباحِ .  
والأطيافِ حياةً أَى حياةٍ . اللمسة الخفيفة لها مُنعة عميقة ،  
والخفقة العابرة لها معنى جليل ، ولا أشهى من أن تتناغى الشفاه  
حيث لا تبصّ العيون ! ...  
الظلام ! ...

ما أروع الظلام ! ...  
وما أطيّب هدأتَه ليستغرق النائمُ في سُبات ! ...  
فأَتَى لمن ينشد النومَ أن ينعمَ براحته وسكينته ، وهذا  
الديدبانُ العنيد من ضوء النهار عن كتب مه ، يرصد له في  
اجترامٍ ، ويعابُثه في سخرية واستهزاء ؟ ...  
على أن بلاد الشمال تقصُّ من ذلك النهار الظالم الكشوم

على مَدَار العام، وبذلك يأخذ العدل مجراه في نظام الكون  
العجيب ! ...

هذا النهارُ الطويل — نهار الصيف — يَحُور نهارا  
ضعيفا مَهِيض الجناح، في أشهر الشتاء، فهو لا يجسُر أن يرفع  
هامته، وقد جثم عليه ذلك العملاق من ليل داج تتلاحق أمداده  
طللمات بعضها فوق بعض ! ...

لا يكاد نهار الشتاء يظهر في الساعة التاسعة من صباح اليوم،  
حتى تُغَيَّبَه الحُلُكَة في الثالثة بعد الظهر  
وهكذا يقف الزمن الأزلى السرمدي وقفة الحاكم المنصف،  
يداول بين ضوء النهار وظلمة الليل نشوة الغلبة والانتصار،  
بذل الهزيمة والخضوع ! ...



جزيرة الأحلام...

يسير عليك أن تلم بصورة واضحة لمدينة « أَسْكُهُمْ »  
حتى رسمت في مخيلتك صورة الخُلجان متناثرة، ينساب فيها ماء  
« قراق »، وهي تجوس خلال جُزُر صغار رافلة في وُشَى  
أخضر ناضر .

تقول الحكمة العربية المأثورة : ثلاثة يُذهبنُ الحزن ، الماء  
والخضرة والوجه الحسن ... وهذه المعالم الثلاثة هي طابع  
ذلك البلد الطيب ، فحيثما ترّجع البصر تطالعك تلك المفاتيح ،  
وتشهد كيف يتألف مزاج من جمال الكون تعاونت عليه  
فطرة الطبيعة وصنعة الإنسان ! ...

ليست مدينة « أَسْكُهُمْ » عاصمة كشأن تلك العواصم التي  
تختنق بأبنية تتناول وطرق تتزاحم ، وإنما هي معرض رائع  
من مُنْزَهاَتٍ متصِل بعضها ببعض ، وما ائتقالك بين هذه  
المنزهات إلا تطواف بأرجاء المدينة ذات الطول والعرض ...  
ما أكثر الجزُر هنا وما أجملها ! ...



من بينها جزيرةٌ هي أوسعها شهرةً ، وأعمرها بالزوار ،  
لوقوعها غيرَ بعيد من قلب المدينة ، « جزيرة جُورجاردن » ،  
أى « حديقة الغزلان » ، وإنما أطلق عليها هذا الاسم ؛ لأنها  
كانت في العهد القديم مراتعَ للظباء ، يؤمُّها الهُواة للصياد .  
وطالب لنا أن نقصدَ تلك الجزيرة التى يحق لها أن تسمى  
« جزيرة الأحلام » ... فاتخذنا إليها زورقا بخاريا ألقيت  
قيادتهُ إلى الجنس اللطيف ، فهنا غادتان تبدوان في لبوس البحارة ،  
لبوس رشيق يزيدُهما من فتنة وسحر ... ولقد استبان لى أن  
الجنس اللطيفَ يسيطر على البحرِ فى قيادة أمثال هذا الزورق .  
فما أشبه غيدَه بمحُورياتِ البحر اللواتى تبالغُ فى وصفهن  
الأساطير ... وإنهن حقاً لمهراتٌ فى أداء مهمتهن ، نشيطاتٌ  
فى إدارة الدِّفاف وشد الحبال ، أنيسات يجعلن من أنفسهن دليلاً  
يرشدن السَّيَّاح . ويزودنهم بطرائف المعلومات والأخبار ...  
والجنس اللطيف فى هذا البلد يزاولُ أشتاتاً من الأعمال ، ولكنه  
ما زال على عهده ، رقيق الحاشية ، رشيق الحركة ، يجتذبُ العين  
بحسن الزينة ، ولُطف الدَّل ، وأناقة الهندام .

تهادى بنا الزورقُ على صفحة الجدول ، والغادتان تتحكمان به  
في ملكة الهواء والماء ، ونحن مستسلمون لهما تتصرفان بنا كما  
تَهْوِيَان . وليس بجديد أن يُسلم المرء أمره إلى « حواء » ،  
تمضى به في مُلتطَم الحياة كما تشاء ، فهذا حكم القدر مسطراً في  
لوحة منذ الأزل ، وسيظل الحكم النافذ إلى غاية الأبد .

وترأى لنا عن اليسار شارع « ستراند فاجن » العظيم ، حيث  
تقيم مَفوَّضَتُنَا العزيزة ، وعن اليمين معالم الجزيرة بما فيها من غابات  
ومتنزهات ومُروج ، تعلو نجادُها تارة وتهبط وهادُها تارة أخرى ،  
سُحَّارت عيوننا بين الشاطئين ، لا نكاد نتعلَّى فتنة الشاطئ الأيسر  
حتى يلفتنَا إليه الشاطئ الأيمن بما حوى من كنوز الطبيعة  
الزاخرة .

وبينما نحن ماضون ، إذ لاح لنا العلم الأخضر بهلاله وأنجمه  
البيض ، وهو على ساريتِه العالية يخفق ، فإلبثت قلوبنا أن  
تحفقت معه ، وأشرعنا إليه أبصارنا نجتلى طلعتَه ، ونبعثُ إليه  
تحية عامرة تحملُ التهنة إلى الوطن العزيز ، إذ كان اليوم يوافق  
يوم العيد الأصغر ، عيدِ الفطر .

وكنا في الحين بد الحين نسمع صوت الدلية ، تشرح لنا  
ما نشهد من معالم الطريق ؛ فإذا صادفنا مَرَفًا تلتمع زوارقه في  
صُفْرة فاقعه ، وهى تترجح على أديم الموج ؛ كأنها « السابجات  
الفانات » ؛ — سمعنا صوت الدلية يقول : « هنا ناد  
للزوارق !... »

وإذا بسقت الأشجار وتكاثفت ، تحاول أن تخفى بين أحضانها  
المنازل الأنيقة ، أشارت الدلية إليها تقول : هنا مشوى كثير  
من السفارات !...

وتضايق المجرى الذى نسلكه ، حتى غداقة تكاد ضفّتها  
تتلامسان ، فإذا الغصون المتشابكة تُفِىء عَليْنِسا وارفاً  
الظلال ، وتفيض علينا السكينة والصفاء !...

ومضى بنا الزورق فى هيئة ويُسْر ؛ كأنه يجوز طريقاً  
معبّداً فى روضة زهراء ، وأخذت عيوننا ربوة مُعشّوشة  
فى الجزيرة ، فقالت الدلية متهدّجة الصوت فى رقة وحنو :  
هذه خيمة الحب !...

حقاً ما أجلّ همّ هذه الربوة التى سوتها يدُ الطبيعة فى غير

تكلف ، وأضفت عليها غلالةً رقيقةً من نسج الخيال  
والأحلام ، وما أولاهما بأن تكون محراباً تتناجى فيه القلوب  
حين يؤلف بينها حب شريف وهيام غفيف !...

وهذا قصر رائع ... إنه قصر « الكونت برنادوت »  
— شهيد « فلسطين » — ذلك الرجل النبيل الذى اتزع نفسه من  
مباهج عيشه ، وألقى بحياته فى أتون الشرق المستعر ، فأتت عليه  
للعارُ ، نارُ الغدر والعدوان .

وذلك مبنى عتيق ، عليه جلالة ، وفيه طرافة ، تحب به  
خضرة كاسية ... إنه مطعم من مطاعم القرن الثامن عشر ،  
شيخ ركبته السنون ، ولكنّه ما قىء يعمل فى همّة الشاب  
ونشطته ، محتفظاً بطابع عصره الخالى ، وتقاليده الماثورة ،  
ومن لطائفه أن له طائفةً من مركبات نفحة تجرّها الجياد  
المطهّمة ، وهى تذهب لتنقل إلى المطعم رواده فى حفاوة  
تكريم

وتسلل الزورقُ من تلك القناة الحاملة ... واتسع الأفق  
حيال الأعين ، فإذا نحن فى مياه « البلطيق » ، ... وتباعدت عن

اليسار معالم المدينة ، فالتزم الزورقُ أن يحاذي شاطئ الجزيرة .  
عن البمين ، ومررنا في الجزيرة نفسها بأبنية جميلة . من بينها معهد  
للصم والبكم ، وملجأ للعجزة ... يا لهؤلاء السعداء ممن نكبهم  
الزمن من خلق الله ! ... ما أجدرهم بأن ندعوهم التعساء  
لالمحظوظين ! ...

وتجملت لنا تحفة نادرة هي قصر الأمير « أوجين » أحد أمراء  
الأسرة المالكة . بارحه صاحبه إلى العالم الآخر منذ سنوات قلال .  
موصيا بأن يكون من بعد مُتُحفا للأمة ، فزلنا عن الزورق لتنعيم  
النظر بطوفة في ذلك القصر البهيج ، وحديقته الفيحاء .

كان هذا الأميرُ في مقدمة الفنانين الأصلاء ، وكان كذلك راعيا  
من رعاة الفن الأعلام ، وما هذه الخيلة التي تجدق بقصره إلا  
نفثة من نفثاته ، أو بَشَّة من بَشَّات جِوَاه ، بل إنها  
بَضْعَة من قلبه الصني ذوقه الرفيع ... وإن القصر لبخفلُ  
بالواح فنية رائعة تشهد لصاحبها الأمير بالبراعة ، بيد أن خيلته  
هذه أجملُ ألواحه وأزخرُها بالحوية ، في صدرها تعتلج أنفاسُ  
الحُبِّ ، فتُجَبِّلُ منها لوحا حيا يتجدد على الزمان .

تجوس خِلال تلك الخيلة الفَيَّانة متقلابين أفيانها الحاتية  
هانيء النفس بما تشهد من رياحين يؤلف بين ألوانها نسق جميل  
وبين الخطوات والخطوات في هذه الكعبة الفنيّة التي أقيمت  
لعمادة الجمال ، يطالعك أثر رائع يجندب عينيك ، فلا تملك إلا  
المكوث حياله تستجلي مافيه من شمر خلّاب... حياض وجداول  
وفوارات تتمدد فيها حسان عاريات ، يتخذن في ضجعتن  
أوصاعا تكنُ فيها الفتنة ، ورّاذُ الماء يتساقط على أجسادهن  
اللُّجينية كأنه يدعدهن ويعابهن ... وربما أطلت وقوفك  
وأنت ترعى بعين الهيمان هؤلاء الحسان . فيخيل إليك لفص  
الحيوية فيهن أنهن على وشك التغير من أوضاعهن ، متقلباتٍ  
يمنةً أو بسرّه ، أو ناهضاتٍ يصرفن عن الحياض ليكتسبن ،  
فتطل مانلا لا تبرح ، وهن في مُستقرّهن راقداتٌ ، لا يعان  
عمرّ الوقت ، فاهن من حُكّان عالمك الفاني يشاركك في  
حياتك الضحلة المملؤل ، وإنما هن من دنيا الفن ، مكتوب  
لهن الخلود ...!

وهكذا تعمُرُ الخلة روائع التماثيل مشوثةً هنا وهناك ،

تارة تحتضنها الأشجارُ تكادُ تخفيها بين الظلال ، وطورا  
تكسوها غلايلُ من الغصون والأفنان ، وحينا تبدو ضاحية  
تسفر للناظرين ! ...

خرجنا من خيمة الأمير « أوجين » نساءلُ : إلى أين  
المسير ؟ ...

فاتمى إلينا صوت يقول :

إلى « سكانسن » ...

وتداني صاحب الصوت منا مبتسما في لطف ، وقد أدرك  
أنا غرباء ، وواصل حديثه إلينا يقول :

إن « سكانسن » جزء مهم من جزيرة « جورجاردن » ، لها  
المكانةُ فيها ، بل في العاصمة نفسها ، بل في « السويد » كلها .  
ولما استزدناه من حديثها ، قال :

ما يحمل بي أن أُطيلَ التحدثَ إليكم عنها ، فأفسدَ متعمك  
بها ، فعليكم أن تستظنوا بأنفسكم أسرارها ، وحسبكم أننا  
نسماها هنا « متحفَ الهواء الطلق » وهو ضربٌ من المتاحف  
طريف ، تميزت به بلادُ الشمال ، وخاصةً « السويد » . ولكني

أَسْأَلُكُمْ أَوَّلًا . هل أَصَبْتُمْ غَدَاءَكُمْ ؟ ...  
فَأَجَنَاهُ بِالنَّقْيِ ، فَصَاحَ مِنْ فُورِهِ :

إِذْنًا هَيَّا إِلَى مَطْعَمٍ « بِلْبَانَسْرُو » ؛ لَتَسْتَمْتَعُوا بِجُلْسَةِ هَائِثَةٍ فِي  
سَحْرَةِ الْمَشْعِ بَرُوحِ الشَّاعِرِيَّةِ وَالْمُوسِيقِيِّ ؛ إِذْ أُقِيمَ هَذَا الْمَطْعَمُ  
تَمْثِيلًا لِلذِّكْرِ شَاعِرِ سُوَيْدِي عَظِيمٍ ، سُمِّيَ بِاسْمِهِ ، وَقَدْ كُوفِيَ  
الشَّاعِرُ بِهَذَا التَّكْرِيمِ ؛ لِأَنَّهُ أَحَبُّ جَزِيرَةٍ « جُورْجَارْدَن » وَخَلَدَ  
حَفَافَتَهَا فِي فَصِيدِهِ الرَّائِعِ ؛ وَالْقَوْمُ هُنَا يَحْتَفُونَ بِذِكْرِهِ ،  
فَيَنْظُمُونَ لَهُ حَفَلَاتَ مُوسِيقِيَّةٍ فِي مَخْتَلَفِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ  
كُلِّ عَامٍ .

وَقَصَدْنَا إِلَى « بِلْبَانَسْرُو » ، فَإِذَا هِيَ مَغْنًى لَطِيفٌ ، يَعْتَلِي رُبُوعَ  
زَهْرَاءَ ، رَحِيبِ الْمُسْتَشْرِفِ ، لَهُ حَدِيقَةٌ أُنِيقَةٌ بِسُتَيْبَلِكٍ فِي مَدْخَلِهَا  
تَمْتَالُ عَارٍ ، يَتَوَسَّطُ بَرَكَةً صَغِيرَةً ، وَقَدْ حَمَلَ فِي يَدِهِ فَوَارَةَ عَالِيَةً ،  
لَا يَبَالِي مَا يَتَسَاقَطُ مِنْ مَائِهَا عَلَيْهِ ، حِينَ تَتَنَاضَحُ الرِّيَّاحُ .

وَاخْتَرْنَا بِمَجْلِسَنَا فِي الْمُسْتَشْرِفِ ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْنَا — وَنَحْنُ  
تَطْعَمٌ — جُوفَةٌ مِنَ الْمُسِيقِيِّينَ يَشْفُونَ الْأَسْمَاعَ بِرَقَائِقِ النِّغَمِ  
وَهُمْ فِي أَزْيَاءِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ ، لِبَفَيْضُوا عَلَى الْبَقْعَةِ رُوحًا مِنْ



« الرومانسية ، المحبة ، ولجئوا ذكرى شاعر الجزيرة  
الحالدة : « لبانس » .

وهضنا بعد الغداء إلى « متحف الهواء الطلق » سكانسن ،  
فألفيناه مشبداً في موقع حصن قديم لا تزال بعض معالمه الأثرية  
قائمة ، وعلى شرفته العالية بضعة مدافع هرمية تهالكت في  
مسربضها ، مستجئمة الوجوه ، ترشق المدينة المنبسطة أمامها في  
السهل الرحيب بنظرة زهو واستعلاء ، كأنما يخيل إليها أنها ما برحت  
« سيدة الموقف » ، تصون الذمار ، وتحنى الأهل والديار ، وماهى  
إلا أثر دارس يجاهد ولاية الأمر في الاحتفاظ به على سبيل  
التذكار ! ...

على أننا مررتنا بهذه المدافع - أو بالأحرى : حطام المدافع -  
نجيها تحية إجلال ، كما نجى شيخنا وقورا علت به السن ، حتى  
أبطلت حركته ، وكانت له في سوائف الأيام عظام وأجناد  
يشغل « متحف الهواء الطلق » رقعة شاسعة تضم أطرافه ،  
فيه مجموعات من قرى وحدائق وغابات ، حافلة بالأناس  
وصنوف الحيوان .

لهذا المتحف صيته، هو «متحف الحضارة»... ولكن  
شئان ما بينهما ! ...

«متحف الحضارة» يصور معالم الحياة الاجتماعية للبلد، في  
مشاهد مصنوعة، وتماثيل صوامت، وألواح فيها أحداث  
التاريخ قريه وبعيده، يحتويها جميعاً مبنى واحد تحت سقف واحد  
ولكن «متحف الهواء الطلق» يعرض هذه المعالم طبيعيّة المشاهد  
مشوبة النشاط، فيها وميض الروح ! ...

«متحف الحضارة» يرينا التاريخ في ألغاف من الأكفان  
والرّموس، أما «متحف الهواء الطلق» فإنه يرينا الماضي، وقد  
عاد إلينا يدب على قدميه في حيوية عارمة ! ...

«متحف الحضارة» لا يبدو أن يكون مجلداً فخماً، تطالع  
فيه أروع صحائف الأمس، أما «متحف الهواء الطلق» فإنه  
معرض تشهد فيه نماذج بشرية على مسرح الطبيعة ! ...

كان «متحف الهواء الطلق» في بداية أمره فكرة طافت  
بمخيل أستاذ سويدي من المدرسين، فلقبت الفكرة قبولاً عند  
مردّة الأمور، ومالبثوا أن حققوها على هذا الوجه، وأتيح

للناس أن يروا ما فيها من طرافة ، فأعجبوا بها أيما إعجاب ،  
وسرعان ما انتشرت متخفُّ الهواء الطلق في مختلف بلاد  
الشمال .

ولكى تبدو هذه المتاحف صادقة المظهر ، أمينة المخبر ،  
لا زينت فيها ولا تصنع ، نقلت إليها الدور من مواطنها  
الأصيلة ، وأقيمت على نحو ما كانت تقوم ، محتفظة بكل  
ما لها من مميزات ، لم يتبدل فيها شيء من الأثاث والنسق ، فهي  
كما هي في شتى ظواهر حياتها القديمة .

لم تنقل الدور وحدها إلى هذه المتاحف ، بل نُقلت معها  
كذلك طواحين الهواء ، والكنائس العتيقة ، وظلال  
النواويس ، وما إلى ذلك من طرائف الآثار .

وما كان عسيراً أن يتم النقلُ على وضع دقيق ، فإن هذه  
الآثار مصنوعة من الخشب ، قوام العيش في ذلك البلد .

شدها ما يطيب لك أن تجول في متحف الهواء الطلق ، حيث  
لا سقف يُظل ، ولا أسوار تحُد ، فإذا أنت تجوزُ القرى  
واحدة تلو واحدة ، فطالعك الحوانيت زاخرة بالبضائع

الحلية من منسوجات وطُرف ، وقد أشرقتْ وجوه البائعات  
الحسان على أبوابها في حُلل تاريخية ، فاقعة اللون ، يتعاشق  
فيها الزخرفُ ... وفي ساحة القرى تَراءى لك جوقه  
موسيقية في لبوسها الوطني ، وهي تعزف مقطوعاتٍ شعبيةً  
يتمثلُ في ألحانها الطابع السويدي العريق ، وحيال الجوقة  
مرقصٌ يتجمع فيه الراقصون مُحملهم ثياب زاهية  
موشاة .

وإنك لتسير وسط هذا المهرجان البهيج ، حين  
الخطو ، منشرح الصدر ، تعترضك حظائر القرى ، وهي تعج  
بالماعيز والأبقار ، فتقفو نفسك إلى أن تدخلَ بعض ما في  
القرى من الدور ، لتكشف ما هناك من خُبائلا ، ولا تكاد  
تنخطى عتبة الباب حتى يلقاك مَنْ يرحبون بك فيعق في روعك  
أنهم قُطَّانُ الدور الأصلاء ، زراعُ العهد الغابر ، وقد تنفَّسَ  
بهم العمرُ حتى أسلمهم إلى يومنا هذا ، دون أن تستبينَ عليهم  
الشيخوخة ، وتنضب فيهم القُوى ، وهم يجوسون بك خلال  
الدار ، يشرحون لك ما غمض عليك من مرئياتٍ ومشاهد ،

خُتِمْ : كيف كانت معاش أهل الريف في العهد السحيق ؟  
هنالك في صدر البهو ترى القرن ، قلب الدار الصميم ،  
منه يشع دفء الحياة . فلا غرو أن يُؤَلِّسَه القوم أكبر العناية  
ولا بألوه زخرفاً وزينة ، حتى يسدو قطعة من الأثاث عليها  
طلاوة ورويق . . . وغير بعيد من البهو تواجهك حجرة  
ازدحمت فيها المناسج والمغازل ، وفي ركنٍ منها تلمح مرقداً  
مُجَيِّباً أقيم في داخل الحائط ، وأسدت عليه أستار مختلفة  
ألوانها تسر الناظرين

فإذا تابعت طوافك بحجرات الدار ، ألفت المطاحن  
والمعاجين والطسُوت وأدوات الركوب وآلات الصيد وعدة  
الحدادة والتجارة ، وما إلى ذلك من مرافق العيش . . . ومضى  
بأرحت الدار ، فنظرت فيما حولها ، بدت لك المناحل  
والعرائش والآبار ، وسائر معالم الريف القديم .  
تقع عينك على هذا كله في سمته الأثرية ؛ وكأنما قد رجع  
إليه رفيف الحياة ، فإذا هو زاه خفاق .

وهذه القرى لا تتشابه فيما لها من أوضاع ونظم ، فإن كل

قرية تحمل طرازها الخاص في هندسة البناء ، وفق العهد الذي عاشت فيه .

وما أنس لا أنس ذلك التَّمَط العجيب في تشييد طائفة من الدور ؛ إذ تقوم على عمد من حجارة أو خشب ، ترتفع عن الأرض بضعة أمتار ، فتراها الأعين من بعيد كأنها أشباح لها أرجل وسيقان .

وأروع منها منظرا تلك القرية « اللاية » اللطيفة ، ذات الأكواخ المستديرة ، تحيط بها المراعى ، وتتباثر بينها منافع الماء ، وترح فيها الوعول ، حتى إن جوها يعج بأسراب البعوض ؛ سيد مناطق « اللاب » ..

في هذا المتحف الطلق الهواء ، تتجلى معالم الحياة السويدية ، ريفية وحضرية ؛ فقد أفضى بنا الطواف إلى حى من أحياء مدينة تاريخية ، فحللنا مبنى أثريا مكتوبا على بابه أنه « صيدلية » ، وعرفنا أنها كانت لبعض الغابرين من ملوك « السويد » ، ألحقها بقصره ، واختص بها نفسه وذويه ، وجعلها ذات أقسام ؛ فهذا مخزن للأدوية برفوفة وخزانة ومقاعده ،

ترى فيه القوارير والحقاق والصناديق ؛ عليها مظهرها القديم  
المألوف ، وعلى مقربة من خزن الأدوية معمل تتكاثر فيه  
الأنايق وأواني الغلى والصهر والدق والوزن ، وهنا لك مكتب  
الصيدلى عليه المجلدات والأوراق والمحابر .

وكذلك تنتقل فى ذلك المتحف العجيب ، مالتاً عينيك من  
مشاهد التاريخ ، ومن صورهِ الحية الناطقة ، وقد ثارتُ فيك  
مشاعرُ وأحاسيسُ ، وإذا أنت قد اغتنتمت خبرة أحقاب  
طوال ، ومتعة حَيَواتٍ عِراضٍ ، فى بضع ساعات من يوم  
بهيج .

والآن إلى الوطن الذى تألفته مخلوقاتٌ من أصدقائنا غير  
الآدميين ... بقعة متراحة فيها تتجاور فئاتٌ من طير السويد  
وحيواته ، لكل فئة مأواها ، وقد أعد إعداداً دقيقاً يحاكي  
موطنها الذى جلبتُ منه سواء بسواء .

هى حديقةٌ للحيوان ذاتُ صبغة محلية ، شيدت على هضبة  
جمعت فى كيانها بين الغابة والمرج والبحيرة والجبل ، إذا جُلت  
فيها صاعداً هابطاً ؛ فكأنك تشهد صيدا . والفرائس ملك عمن

كتب ، ولكن منالها منك بعيد . ولت شعري أى صائد يحل  
بهذه الروضة الفواحة تراود رأسه نزوة القتل والاقتراس ؟ ...  
حسبك أيها الصائد المتطلع أن تشرف على هذه البركة اللطيفة  
بين أحضان الغابة ، تملي ما تزخر به من فتنة وسحر ... الطير  
الألوف من بطء وإوز ودجاج خلاّب الألوان ، طريف  
الأشكال ، يمرح طليقا على الضفاف ، متلاعبا بالماء ، أو محوّا في  
السماء . وبين القينة والقينة يخرج من الغابة ، السنجاب ، ذلك  
الحيوان الطريف ، وهو يتواثب كالقط الصغير منتفش الذيل ،  
براق العين ، يتشمم بأنفه المستدق ، باحثا عن طعام ... وقد  
تسوقه خطاه إلى مجلسك ، فلا يستوحش منك ، وإنما يتلطف  
لك ، مُطوّفاً حولك ، موصول النظر بك وأنفه المستدق لا يفتأ  
يتشمم ، فتفهم ما يعنى ، وتلقى إليه بقطعة من فطير أو حلواء ،  
فما أسرع أن يمسك بها في احتياج ، ويتخذ من فوره وضعا غريبا  
يثير انتباهك ؛ إذ يستوى على عجزه ، معتمدا على ذيله وقد  
امتدت كلتا يديه بالطعام إلى فيه ، وانهاه عليه قرصا كما تفعل  
الجرذان ...



وتسلك طريقك المتعرج إلى قمة الصخر ، موطن الدببة ...  
ويا له من موطن رائع لهذا الحيوان الخوف ، فما أجمل الدبة في  
بياضها الناصع ، يلتمع فرائها التماسيح الحرير النمن . وإنك  
لتشدها أنيسة يتودد محياها إليك ، خفيفة الحركة على جرمها الثقيل ،  
تتقافز على الصخور في بركتها الجبلية ، تارة تغطس إلى الأعماق ،  
وتارة تطفو مناجحة إلى الأمواج المتلاطمة تعابشها معاينة  
الأطفال .

وتمضي في جوارلاتك ، تاركا حديقة الحيوان ؛ لتبحث عن  
متعتك الحضورية ، متعة القرن العشرين ، فلا تبخل بها عليك  
سكانس ، ، فما هي متحف وحسب ، وإنما هي مجمع لأنواع  
المباهج يلتقي فيها القديم والحديث .

ثمّة مسرح فسيح ، تقام فيه حفلات الموسيقى والغناء ، وثمّة  
مطاعم ومشارب فيهما ما لذّ وطاب ، وثمّة سلاسل متحركة تريح  
قدميك من غناء الصغود والهبوط ، وثمّة مستشفيات عالية  
تطل بك على أمتع مناظر العاصمة .

زرنا أهم ما في جزيرة « جورج جاردن » من معالم ، وآف لنا

أن تسرب إلى قلبها ، لنستجلى مستودع أسرارها ، حيث يسكن  
الجوهر الأصيل لفتتها الخلابة .

خير أن تقلك ميارة ، وأن تجتأب قلب الجزيرة في تباطؤ  
واتّئاد ، فسرعان ماتحتويك الغابة ، وإذا هي حيناً كثيفة ملتفة ،  
تغشاها غلالة من ظلام ، لا ينفذ إليها النور إلا قطراً من أعاليها  
كأنه نثار اللؤلؤ ، وإذا هي حيناً مروج تنبسط أمامك حالة  
بالأزاهر، ترسل عليها شمس الأصيل؛ فكأنها مذهبة الحواشي...  
وهالك تبدو لك مطاعم ومشارب صغيرة تستقبلك في رحاب،  
وإنها تقوم في ظلال خشبية أنيقة رشيقة ، حولها إهوائد ومقاعد  
تهدل من فوقها أفنان الشجر ، فلا تملك إلا أن تتخذ مجلسك  
وسط هذه الفتنة الحية من الطبيعة المشرقة ، بين ماء يترقرق  
وخُمرة تنتضر، ثم تنهض إلى الظلة لتطلب إلى النادلة الحساء أن  
تملاً صينيتك بما اشتيت من مأكل ، ثم تحمل الصينية إلى مائدتك  
لتطعم هنثاً مريثاً في جو من السداخنة والذبعة ، كله رَوْح  
ورينجان! ...

ولما جنّ الليل ، وهمنا أن نرجع أدراجنا إلى الفندق ،

زين لنا الرفاق ألا نبارح « جورجاردن » قبل أن نزور  
« تيفال » ... مدينة الملاهي ، وملعب الكبار والصغار ، وأما  
يسمى : « لونا بارك » ... وما كاد يسمع صغارنا باسمه حتى أرادونا  
على الإسراع إلى ذلك المكان الحبيب إلى نفوسهم الغضة ، فوافيناه  
متوهج الأضواء ، وانطلق الصغار فيه يتواثبون ويتصايحون في  
مراح ... وتضينا هزيعا من الليل في تلك المثابة الصاخبة ،  
متقللين بين أنواع الملاعب ، تنحدر بنا القطارات والمركبات إلى  
مغارات الشياطين وتسمو بنا الطائرات وطواحين الهواء إلى  
أوج بعيد ...

هكذا فر اليوم كما تفر هائثاتُ المني ...  
أليست « جورجاردن » حقا « جزيرة الأحلام » ؟ ...



الحضارة... في خطوات ...

ماذا في جعبتك أيها الرائد لمن يقتفون أثرك ، ويستهدون  
خطواتك ؟ ... لقد أمتعتهم بالطواف ساعة في « متحف الهواء  
الطَّلَق » ، فهل من بقية عندك في « جزيرة جورج جاردن » غير  
هذا المتحف الممسح . الطريف ؟

جاءنا جواب الرائد على الفور :

غير بعيد منه متحف آخر ، هو أخوه وصوه ، يسمى « متحف  
وردسكا » . ماذا يزهدكم فيه ؟ ماذا ينأى بكم عنه ؟ أظهر ما بين  
المنحمن من فارق أن الأول على أديم الأرض في العراء ، والآخر  
كسائر المتاحف يضمه بناء ، ولكن لا غُنية لأحدهما عن صاحبه  
في العرض والإيضاح . كلاهما يمثل الحضارة القديمة في جملته . وإن  
اختلفت بينهما التفاصيل ، وكلاهما لمؤسس فرد ، هو الاستاذ  
« ارتور هازيلاس » ، فلا غرو أن يتقارب مكاناهما من هذه  
الجزيرة الزهراء !

ما أسرع أن تَأْدَى بنا السيرُ إلى بناء ضخم نفخ ؟ تعلوه أبراج ،  
كأنه قصر رفيع لسيد غظريف من نبلاء العهود السوالف ، يسلمك  
بابه إلى بهو حلويل عريض غير مسقوف ، على جانبيه تصطف  
الحجرات ، ومن فوقه تترأى لك طبقتان من البناء كأنهما شُرُفات ،  
وترفرف عليك أعلام السويد في مواضع العهود ، حاليةً برسوم  
غريبة لا أشكال شتى من الطير والحيوان والأبواق .

أنت لا تكادُ تُقبل على البهو ، حتى يواجهك تمثال عظيم  
لملك يعدونه مؤسساً لدولة السويد الحديثة ، ذلك هو « غستاف  
فاز » ، الذى قضى نحبه ولم يستوف الأربعين من عمره فى القرن  
السادس عشر . . . . . ويروى ما يتجلى على الملك من مهابة  
وجبروت ولا تلبث أن تلوح فى مخيلتك معالم تلك العصور الخالية ،  
عصور الزهو بالفتوة والقوة ، والتوسل بهما إلى الغلبة والهيمنة  
عما تحفل به أساطير الأولين .

تنقلنا بين القاعات والحُجرات نتصفح ما بها من معروضات  
فاذا هى تمثيل دقيق للمجتمع السويدي كله ، على اختلاف مراقبه  
وتباين فئاته .

هذه وسائل الانتقال برية وبحرية ، ترى بينها المركبات والزلاجات والقوارب ، إما هي بأعيانها ، وإما نماذج مصغرة ، أو لوحات مصورة .

وتلك أدوات الحرب والضرب . على اختلاف الألوان ، ترى بها كيف يتفنن الإنسان في الإجهاز على أخيه الإنسان ... وللأزياء مجال في المتحف رحيب ، فأولئك هم الناس في أثوابهم الوطنية على تفاوتهم بين سَراة وزُرَاع وعُمَمَال ، من رجال ونساء . كبار وصغار .

وهناك المساكن بما حوت من أثاث ، تريك مراقد الريف والحضر ، فترى منها ما هو أشبه بالهَوْدَج ، على مدخله تسدل أستار .

وثمة الحوائط ، عليها نقوش زاهية الألوان منها ما يمثل أساطير مأثورة ، وقصصاً دينية ، وأحداثاً تاريخية ، وقد نُقلت ورُكبت كما كانت في عمورها الغابرة تزين حوائط المنازل ، فهي تمثيل صادق للتصوير الريفى فى السويد القديمة ، وهى تمثيل صادق كذلك للحياة فى تلك الأيام . وما أشبهها بما صنَّع المصرى القدم



حين صور حياته ومعتقداته وطرائق عيشه على الجدران ، يد  
أن المصور الفرعوني كانت له عبقرية فنية وطابع متميز ، وهيات  
لهذا التصوير البدائي أن يدانيه .

وفي معرض الآلات الموسيقية تشهد آلتين تماثلان العود  
والقانون ، ولا تفرقان عنهما في شيء ، وتشهد كذلك آلة تجمع  
بين « البيان » و « الهارب » ، ولعل هذه الآلة هي المرحلة الأولى  
للبيان .

راقنتي في مُنحَف الحضارة أركان ثلاثة :

ركن عشيرة اللأب ، وركن الصيد ، وركن المخبز :

فأما اللابي فلم يتركوا من أمره شاردة ولا واردة إلا جلوها  
له ، هو تارة في زلاجة تحمل متاعه ، كأنها قارب مقفل ، يجرها  
الوعَل . وهو حيناً يتخذ من الوعل مطية لاطفاله ، يحملهم على  
جنبينه في مُهود على غرار القوارب الصغيرة ، وهو طوراً في خيَّمته  
وسط الدغل المشتبك . وأخيراً هو في الجبل المقدس يتعبد ، متخذاً  
له من الأحجار أرباباً على نحو أوثان العرب قبل الإسلام .  
وأما ركن الصيد ، فهو حافل بالمجسمات والصور ، والتماثيل

البارزة ، والحيوان المحتبّط ، عامر بالجبائل والمصايد والفخاخ ،  
تتناثر فيه الرماح والسهام ، والبنادق والخناجر ، إلى غير ذلك كله  
مما يُظهر ك على فن الصيد فى السويد : كيف بدأ ؟ ... وكيف  
تطور ؟ ... وكيف كان يتاح للقوم هنالك أن يطاردوا الحيوان  
العى ، مثل الدب ، وأن يضربوا حوله الحصار ، حتى يصيدوا  
منه مقلًا ، أو يسقطوه فيما نصبوا له من شباك وأشراك ...  
أما ركن الخبز ، فإنك تستشعر منه حرارة الحياة ؛ إذ يذكر ك  
بالباعث الأول للكفاح على وجه هذه الأرض ، باعث الحصول  
على القوت ، على الرغيف ...

لقد مثل المتحف لعينيك دارَ خباز ريفى ، وكأنك زائر  
له تلمس منه لقيّمات ... وذلك هو يشهدك كيف كان أسلافه  
يتخذون المعجن ، ويوقدون الفرن ، ويسوّون الرغفان .  
متحف الحضارة هذا لا يضمن عليك بشئ يخطر ببالك  
أن تعرفه من شئون الناس فى تلك الأحقاب : كيف كانوا  
يعملون ؟ كيف كانوا يلبون ؟ ... ماذا كان لهم من ثقافات  
ومعتقدات وعادات ؟ ...

بل إن هذا المُتَحَفَ ليشرف بك على جانب من حياة  
الأمم المجاورة . تلك التي تربط بينها وبين «السويد» أواصر قوية ،  
تكاد تجعلها جميعاً دولة واحدة ، فتشهد معالم من حضارة «النرويج»  
و«الدانمرك» و«فنلندا» وغيرها ، بما حول «السويد» من بلاد  
وأصقاع ... ولسان حالها يقول : تلك آثارنا تدل علينا ...  
وهكذا تصدر عن المتحف ، 'وقد اجتزت حضارة مئات  
من السنين في خطوات .



قصر الغرام!...

نحن في مدينة « أستكلم » ، تلك المدينة العامرة بالخضرة ،  
ومن ثمّ أطلقوا عليها ذلك الاسم الذي يترجم عن ميزتها  
الواضحة ، ومعناه : « جزيرة الشجر » ...

ولكنّ أهل المدينة لا يقنعون بما يرحون فيه من ضلالتها  
من نعيم ، فالزهوة تُثنية النفس الملول من كل شيء ، والرحلة سبيل  
هذه النفس إلى التشوّف ، إلى التعرف ، إلى التجديد ! ...

هذا يوم الدعة والترويح يوم « الأحد » ، فما برقَ الصبح  
حتى هجرَ المدينة أهلؤها من رجال ونساء وأطفال ، وقد اتخذوا  
زِيّ الزهوة والرحلة . ومضوا إلى مرفأ البواخر والقوارب  
يركبونها طلباً للمتعة الانتقال ! ...

واختارنا سفينةً رشيقة ، فدخلناها بسلام ، قاصدين الجزيرة  
المُسماة « جزيرة الملكة » .

اشتهرت هذه الجزيرة بقصر قديم كان يقضى فيه ملوك

«السويد» فترة الصيف ، وقد تُوفى فيه الملك المعمر  
«جوستاف» . أما الملك القائم الآن فقد ازُورَ عنه ، ولعله  
ضاق بما يخلعه عليه القدم من جهامة وعبوس ، وبما يعوزه  
من مقتضيات الحياة العصرية الحديثة ، فاستبدل به مسكنا جديدا  
في بقعة أخرى يواتيه بهذه المقتَضَيَات .

سار بنا المركب البخارى ، يشق الخلجان ، وصافح وجهها  
نسيمُ البحر المنعش ، يبعث في عيوننا نشوة التطلع ،  
فلاحت لنا عن العين دار حمراء شيدت على الطراز البندقي ،  
تصطف تحتها قبوات ، وتقوم فوقها أبراج ، وتبدو عليها تماثيل  
مذهبة تلتمع في وهج الشمس ، ومن حولها حديقة تتناثر  
فيها مقاعد للناس .

تلك هي «دار البلدية» ، ما أشبهها في «أستكهلم» بدار  
النيابة في «لندن» ، فإن الدارين تماثلان في الفخامة والعِظَم  
وفي مواجهة البحر .

وتراءت لنا على مدّ الشاطئ منازلُ المدينة ، رائعة التناسق ،  
شُرُفاتها تتحلّى بالأزهار ، وتتبسّط عليها مظللات زاهية الألوان ،

وأخذت عبوتنا جسرا بعيد المدى ، هو إحدى فرائد  
« أستكملم » ، وما هي إلا أن اكتفت الشاطئ غابات  
وصخور ، كأننا نستقبل منظرا من الريف ، وبدت لنا الدور من  
بين الخائيل تختلس النظر إلى البحر ، كأنها عرائس ترفل  
في الأقواف على استحياء .

وبينا نحن نستمتع بمراى الزوارق متخطرة على الماء ،  
ومن حولها طلاب الاستحمام يعابثون الأمواج ، إذ مرت  
بنا في السفينة عاملة التذاكر تقنضينا أجر الركوب ، وهى  
فتاة لمّاحة المحيّا ، فى أدب جم ، فوجدتنى على غير وعى أرقب  
مكان القيادة من السفينة ، خشية أن نكون قد وقعنا تحت  
إمرة الجنس اللطيف ، كما كان شأننا فى الرحلة إلى « جزيرة  
الأحلام » منذ قليل ، ولكنى ألفت القيادة قد أسلمت إلى رجل  
رزين السميت وقور ، فتاب إلى نفسى اطمئنان ، وعرفت أن  
إمرة الجنس اللطيف لا تمتد إلى قيادة مثل هذا المركب الكبير ،  
وإلا كانت الكارثة أو كادت ..

وتوالت علينا الجسور ، وتفرعت أمامنا مسارب الماء ،



وتعددت حبالنا الجزر الصغيرة معشوشبة تنعاق فيها أدواح  
وتلتقي خمائل... وبجانب كل جزيرة زورق، كأنما ضاق  
بوحده وظول ارتقابه، ففلق في مكانه يترجرج...  
وأنت لو أوتيت حدة البصر ففتشت في أنحاء هذه الجزر،  
لتصديت عينك أصحاب هذه الزوارق أشباحاً أشباه عراة،  
مستلقين لضوء الشمس، أو مكسّين بظل الشجر، أو مرحين على  
الحافات يتقافزون إلى الماء...!

هذه جزيرة تتوافر فيها حياة الفطرة والطلاقة. ولو سميها  
جزيرة «روبنسون كروزو»، لما أبعدت. يند أن جزيرته كانت  
تحويه فرداً مستوحشاً لا ألف له ولا أنيس. أما هذه الجزر  
فالناس فيها يتلاقون مؤتلفين مؤتسّين، زوجين زوجين؛  
من آدم وحواء.

لبثنا في هذه الزهرة البحرية ساعة. ثم أفضى بنا المطاف إلى  
«جزيرة الملكة»، التي يقوم فيها القصر العتيق.

وغادرنا السفينة إلى أرض الجزيرة. وسرعان ما عيّننا ذلك  
القصر المباح لمن ينشئه المنعة والاستراواح. فإذا نحن نبحر إلى

حديقة فياحة تبرز فيها الزهور أيما تبرز . وتمجلى في أحواض  
نُسِقت أبدع تنسيق . وعلى الجانبين طريقان اصطفت عليهما  
أشجار باسقات . وفي وسط الحديقة فوارة زينت بتماثيل ينساب  
الماء من أفواها على أوضاع خلابة . وبين يدي القصر مُستشرف  
فسيح يكسوه الحصى اللامع ، وأينما أرسلت الطرف وجدت  
ضروب التماثيل من وحنى الفن الجميل .

ليس هذا القصر وحديثه بدءا في فكرته . طرازه يماثل  
طراز قصرين ، أحدهما : قصر « فرسايل » مصيف « آل  
بوربون » في ضواحي « باريس » ... والآخر ، قصر  
« شونرون » مصيف « آل هابسبورج » في ضواحي « فينا » ...  
والناس يحجون إلى هذه القصور سياحا وغير سياح ، لكي  
يتذوقوا فيها من روعة وفتنة . ولكي يتعرفوا معابد الجمال  
والروحانية والصفاء ، ملتجئين فيها ساعة من سلوة وإيناس .

نفذنا إلى القصر ، فإذا هو حقا من طراز قديم ، وإذا هو  
حقا جهم عبوس ، ولكنه عريق الجوهر ، ثمين المخبر ...  
الآباء مترامية الأطراف ، والحجر بالغة السعة ، في كل خجرة

حديقة نخبة ، والحوائط مغطاة بالسجادات ذات الرسوم والنقوش ، أو محلاة بالواح فنية تمثل بعض الملوك والأمراء ، أو مجالي الصيد ، وأحداث التاريخ ، ومشاهد الحياة ...

وقفت لحظات أمام لوحين ممتازين ، يملأ كل منهما حائطا جاكلا ... أما اللوح الأول فإنه يريك الجيش العثماني عن كسب من أسوار « فينا » ، وقد تجلى الجند في حائل مزرکشة ، وعمائم مكشورة ، وبدت على سيحهم المغولية سمات الغلبة والتأمر ...

وأما اللوح الآخر فإنه يريك شخصية عثمانية في بزة حمراء ، على جبل شديد الأسر ، ومن ورائه أشباح إبل عليها الركبان ... تلك صورة « قافلة » ... قافلة شرقية تخرج من الصحراء ...

وفي مختلف حجرات القصر وأرجائه أفانين من التحف والألطف ، ولا تكاد تخلو حجرة من ساعة تدق ، كأن كل شبر في القصر يلتقي على سمعك نداء الزمن ، وإن الاثناث ليهولك بما فيه من ضخامة وتعقيد ، وإن انتمائل لتحاصرُك من كل جانب ،

حتى لتحسين الزوار من حولك تماثيل ، أو تحسين هذه التماثيل  
بعض الزوار

وأفضينا إلى حجرة فيها سرير ، هي مخدع لا ريب . . .  
ولكن أى سرير هذا ؟ . إنه لصغير ، فكيف كان يتمدد فيه  
الملك الجملاق « جوستاف » ؟ أترأه كان مرقدا له وهو فى المهد  
صبي ؟ ... على أن السرير محوط بالأسرار الغلاظ ، فى ركن  
من الحجرة معتم ، وأمامه قطع الاثاث كثيفة موحشة ، فكيف  
يتاح لامرء أن يهنأ بنوم ليلة على هذا السرير المحتبس ؟ الكأنى  
بالأشباح المرهوبة رابضة تحته ، وبين أعظيته وخلف أستاره ،  
حتى إذا جن الليل انبعثت من مكانها عابثة تنشر الرعب والفزع .  
هذه الجزيرة اسمها « جزيرة الملكة » ، فإن الملكة « كرسيتين » (١)

١ — أراد أبوها أن ينشئها على صفات الفرسان وشجعان الرجال ، ولكن  
المرأة هى المرأة ، فلم تلت بعد وفاة أبيها أن ظهرت فيها غرائرها الأصلية على نحو  
ما ستقرأ فى الكتاب فيما بعد ، وذلك نتيجة الشطط والتشدد فى التربية :  
ومكاف الأيام ضد طاعها متطلب فى الماء جذوة نار :  
وتحتم طالع بالفضيلة ، وتمسك بها على ألا تغالى ونشط إلى حد يدعو من نريه  
إلى التمرد علينا وانتهاز الفرص ليع من مهر الرذيلة إذا ماستحت له الفرصة ؛ فلنأخذ  
أبناءنا بالفضيلة فى رفق ولين وهوادة ، بحيث نجيب لإيهم الفضائل بألفوها  
( من طيب خاطر ، ونفس راضية . . . )

اختارتها موقعا تبني فيه ذلك القصر المنيف ! ...

ولنما اختارت هذه الجزيرة الحالية بمقائن الطبيعة : لكي  
يكون قصرها فيها مسرحا للصبابة والحب ، فأحست الاختيار  
كل الإحسان ...

خاضت تلك الملكة الفئانة مغامراتٍ عنيفةً في ميدان الهوى  
حتى طار لها صيت ، ولم يعد أمرُها خافيا على أحد ! ...  
تفتقت عبقريتها عن ذلك القصر الشعري ، ليلائم الحو  
الغرامى ، فقضت فيه لُبانتها هاتئة بحياة أشبه بالأحلام ؛ وإن  
رواد القصر ليطوفون به اليوم يستنشون منه عطر الحب ،  
ويلبسون فيه أطياف الهيام ! ...

أكانت حياة هذه الملكة سخرية لاذعة ممن يضعون قواعد  
التربية ، ويرسمون أصول تنشئة الأبناء ؟ أم كانت درسا حيا  
حاسما لأولئك الذين يفتقرون إلى اكتناه خصائص المرأة  
وخصائص الرجل ، والإيمان بما بينهما من جلائل الفروق ؟ ...  
أراد أبوها أن يُنشئها تنشئة رجولية طابعا بالصرامة  
والجِد ، فوكل بها من يدرّبها على مزاوله الصِد ، ويرُوضها على

ركوب الخيل ، ولبسها زى الرجال ، وما زال بها يث فيها روح  
الرجولة ، حتى تصبح لحكم البلاد أصلح ، وعليه أقدر ، فكانت  
حاتها أقرب ما تكون إلى حياة جندي فى ثكنة ، لامتلك من  
أمر نفسها إلا ما تؤخذ به ، وما تُرادُ عليه ...

وهكذا أسلمتها تلك الحياة التى جاءت مارُ كَب فيها من  
غريزة قاهرة ، وما سبت عليه من طبع غلاب ، إلى عكس  
ما نُشئت عليه واحتيرت له . وكان الرجوع الطيعى لهذا  
الشدوذ والشطط فى التشئة أن انتهزت الملكة أولَ فرصة لى  
تخلّص ، لى تنطلق ، لى تنفجر ! ...

هذا الآدمى المغلوب على أمره ، ليس إلا أسيرَ غرائزه  
وطائعه ، فى تتحكم فيه ، وهى تملى عليه ، وما كانت تلك الملكة  
المرجلة إلا امرأة ، وما كان تعليمها وتدريبها على حياة الرجولة  
إلا محاولة فاشلة لا تقتل الغريزة الكامنة ، ولا تحيل الطبع  
الأصيل !

لقد استيقظت الملكة الرجل يومًا فإذا هى تحس فى دحليتها  
ثورة الأثى قصارى همها أن تظفر بإطراء ما وُهمت من

فتنة الأنوثة ومسحة الجمال وغاية منها أن تكون كمحتشها شركا  
للرجل ، إذا مدت له حبالها لم يملك منها الفكاك ...  
مالها ولهذه الهيبة الملوكية التي تضيفها عليها الرجولة الكاذبة ؟  
ماذا يُجدى عليها أن يتسنى لها قياد الأعناق ، دون قياد  
القلوب ؟

هى امرأة ، قبل أن تكون ملكة حاكمة ...  
لاغرو أن ثور ثأرتها حين رأت الرجال ينظرون إليها  
نظرتهم إلى الرجال ، ولا غرو أن تنطلق بواعيتها الباطنة ، لكي  
تثت لنفسها ولمن حولها أنها ما برحت امرأة لم تفقد حصائص  
الأنوثة ، وأنها مستطبعة أن تجتذب إليها العواطف  
والأهواء ...

أدبرنا عن القصر تشيعنا ذكريات تلك الملكة التي استعنت  
بخصائص الأنوثة على صرامة الرجولة ... وطاب لنا أن نجول  
في الجزيرة جولة نرتاد فيها الغابة ، فألفيناها تتناثر فيها ظلال  
رشيقة تشبه ظلال الاستحمام على الشاطئ ، والناس فيها  
متخفون من ثيابهم يتصدون للشمس والهواء ، فهم يستمتعون

هنا حياة الغابة بعض وقت كما يستمرثون في وقت آخر حياة الشاطئ ، ولكلّ لذة ، وللناس فيما يعيشون مذهب ...

وعدنا من الجزيرة في سيارة حافله ، لها ستة أبواب ، بجوار أحدها عامل التذاكر في مجلس حبيس تحيط به القضبان لا يبرحه ، الراكب يربّه لينقذه أجر الركوب ، أما هو فإنه مقيم يتحكم في أبواب الحافلة فتحة وإغلاقاً ، لا يقتضيه ذلك إلا أن يغمز را في متناول يده ، كلما وقفت الحافلة أو همت بالمسير ...

واسترعى انتباهي في طريق العودة من هذه الضاحية مجموعة من المنازل أُقيمت من خشب ، لتفريج أزمة المساكن ، كأنها قرية عصرية من قرى المستقبل ، وقد ركبت هذه المنازل من أجزاء قابلة للقل ، إذا شئت فككت أجزائها في بضعة أيام ، كشأنك حين تقل الأثاث من مكان إلى مكان

ورجعنا إلى المئوى ، نحمد ليوم « الأحد » ما هيأ لنا من طوفة ممتعة بجزيرة الملكة ، أو بالأحرى : قصر الغرام ...



جزيرة الدفاع!...

هلم إلى جزيرة تبعد عن « استكهم » مسيرة ساعة ... هي  
جزيرة « فاكسولم » ... الخبراء من أهل « السويد » يتواصفون  
جمالها ، فما بالنا لانزورها ، وما رأي كمن سمع ! ...  
خف بنا إليها مركب بحري رشيق ، يعبر الخُلجان ، ويمر على  
الجزر ، ونحن نهم بأنظارنا في خُضرة ناضرة .  
ما كدنا نحمل الجزيرة المرموقة ، حتى شمخ أمام أعيننا عن  
اليمين بناء على لون الرّماد ، كأنما هو سجن كبير .  
ما لهذه الجزيرة المرححة والسجن العبوس ؟  
بل ما لنا نحن ولهذا البناء الأقيم الدميم ؟  
نحوّنا نحوه ، نستبين أمره ، فإذا هو شراً مما توقعنا أن يكون ! ...  
إنه قلعة ، دخولها مخنطور .

خيرا فعل الذين ضربوا عليها الحصار ، ومنعوا أن تُراز ،  
فما نبغى أن نعرف ما وراء تلك الأسوار من أسرار ، وما بنا .

من حاجة إلى ما يثير الخاطرَ من معالم الضرب والحرب ، فلو  
أنهم أباحوا زيارة هذه القلعة الشهواه ، لكنا فيها أزهد الزاهدين !  
جنى على تلك الجزيرة موقعها الحربى بالنسبة للعاصمة ، فقد  
كانت فيما سلف من عهودها مثابةً لمن يصطادون فى البحر ؛  
واتضح من بعد لقادة الجيش أن الجزيرة مطمح أنصار الغزاة  
فى الحرب العامة ؛ متى وقعت فى قبضتهم نفذوا منها إلى العاصمة  
فى يسر ، ومن ثم اضطرَّ حماة البلاد من قادة الجيش أن يتخذوا  
من الجزيرة قاعدةً نعسكر فيها الفصائل ... ولما وضعت الحربُ  
أوزارها جلستُ تلك الفصائلُ عن مواقعها ، وخلفَت وراءها  
تلك القلعة الشاحخة ، أشهر بناء فى الجررة ، لانفَع منها إلا أن  
يكون للتذكار ...

وقفنا هنالك نستقبلُ الماء ، ونجمل فيما حولنا الأنظار ...

يا لله لتلك الفتنة المائية الخضراء ! ...

الموج يترقرق فى رخاوة وهُدوء ، تسبح على صفحته  
فسيات مضمخة بقطر الحشائش البرية ، والجزر منها ما يترأى  
دانى المنال ، ومنها ما تلمحه على البعد يتوارى ، كأنما هو ضنينٌ

محسنه على من يهفو إلى اجتلائه ، أو كأنما يصدّه الحياء أن تساله  
العيون ،

ما أنصفوك أيتها الجزيرة الساحرة ؛ إذ أرادوك على أن  
تكوني ميدان قتال ونزال ، فلقد أبدعك الله مراحا للطمأنينة ،  
وكعبة للأمان .

إن العدو الذى يتلظى فؤاده من الأحقاد ، لا يكاد يستشرف  
مفاتيحك الملائكية ، ويستظل بما أفاء الله عليك من سماحة ولطف  
حتى يخسر ساجدا لك ، ملقيا سلاسله بين يديك ، مؤمنا بجوهر  
الإنسانية من محبة والفة وسلام ...

نحننا أقدامنا نجوب البلدة ، وأى بلدة ؟ ... لاهى ريف  
كالريف المعهود ولاهى مدينة بالمعنى المعروف . هذه قرية مدنية ،  
أو مدينة ريفية ، فيها من خصائص القرى سداجة وطلاقة وجمال  
طبيعى وادع ، وفيها من خصائص المدن نظافة وتنسيق ونظام .  
يشق البلدة طريق ظليل ، هو طريق المرور والنزهة ، لا تكاد  
تصادف فيه مركبة واحدة تثير الغبار أو تبث الضوضاء ، إذا  
أوغلت فيه رأيت المقاعد المريحة تناديك أن تجلس ؛ لى

فستمتع بمنظر المروج الخضراء ، وهي ترف إليك نفحات الأريج .  
وحين تستوفي منها حظك ، تنابع خطوك إلى مشارف  
البلدة ، تعلى تلك الروابي التي كانت تُنصب عليها المدافع ، وتروعك  
من فوقها خلافة البحر المنبسط أمامك ، وترى الجزر المتناوبة  
وهي تبعث إليك ابتسامات خفيرة ؛ كأنهن مستحيمات  
خرجن من الماء نديات ، عليهن نضرة ورؤاء .

وتستهويك في أرجاء المدينة تلك الخواصب اللطاف التي  
تعرض عليك كل شيء ، فتشتري ما شئت من بطاقات وصور  
وطرّاف ، مسترخيا في هذا الجوّ من الأوس والاستراح  
ما تبدّل من ثمن .

وتحل ساعة البطون ، ساعة الغداء ... فتقصد فندقا ريفيا  
أنيقا ذا طبقتين ...

هنالك تدخل بهو الطعام ، قمرمك مائدة فسيحة تتوسط  
البهو ، عليها عشرات الأصناف من لحم وخبز وسمك ، إلى  
مخلّلات و « سلطات » ، فتأخذ صحنك لتختار فيه ما تروقك  
من هذه الأصناف ، وتعود إلى منضدتك لتطعم ، وإذا أنت

تعلم أن هذا كله هو الصحن الأول في قائمه الغداء ، صحن  
المشهيات ، فتسأل نفسك : ماذا بعد هذه الأصاف التي يتمثل  
فيها ما تطهوه مطابخ العالم أجمع ؟

حقاً إن السويديين قوم ذوّاقون ، يقيمون للطعام وزناً أى  
وزن ، وبخاصة وجبة الغداء ، فلا يصيرون طعامهم كما اتفق ،  
ولكن يتفنون في صنعه وفي تطهوه ما وسعهم التفنن ، والصحن  
الشائع عندهم هو صحن المشهيات ، أو الشطائر المذوعة : فهذه من  
تلك ، وقوام ذلك الصحن ضروب السمك ، فالسويدي يفتح  
به طعامه لا بد ، وسواء عليه ما يقدم له من بعد . والشطائر عنده  
شرائح عارية ، تبرقش بألوان من الإدام ، كأنها وشى أو تطرين  
وتفرغ من الغداء ، وتخلد إلى الراحة بعض وقت ، ثم تصغى  
إلى الأحاديث من يرافقونك ، فتسمعهن يتحدثون عن مدافن  
البلادة .

ماذا فى المدافن خلىق بأن يرى ؟ ..

يد أن المرء حين يسمع حديث المدافن لا يستطيع أن يرد  
نفسه عن التأمل والذكرى

إنها مواطن للزيارة محببة ، وهى لكل الناس فى كل مكان ،  
هنا أقرب أنساب الأحياء - حيثما كانوا - إلى الموتى فى أى  
أحداث يرقدون .

هذه مدافنُ الإنسان المجهول ، ما أشبهها بقبر الجندى  
المجهول ، يرى فيها الحى أطياف موتاه ، قهرهف مشاعره ،  
ويستيقظ بين جوانحه وجدٌ وحنين :

هيا إلى المدافن ، نقف فيها خاشعين وقفة التذكار ...  
هيا إليها ونحن فى أطيب الساعات ، نستمرى النشوة ،  
ونحظى بالمتعة ، لكى نشرك فى نشوتنا وممتعنا من فقدنا من  
الأحباب الأعراء .

ذهبنا ناشطين نخرج إلى مدافن البلدة ... فلم نجد ثمة - إلا  
يساطا من خضرة ناضرة ، تقوم خلالها أنصاب من الرخام ،  
لا كلفة فيها ولا صنعة ، ولكنها لا تخلو من رشاقة وجمال .  
طوبى لكم أيها الراقدون فى أحضان هذه الطبيعة الزاهية ،  
فى جنة الأرض ! ...

وعليكم من السماء رحمتا ...





فصحبة الأزهار!...

نحن في السويد ، كلما خرجنا إلى ضاحية أو جزيرة ، حمدنا  
معها الصحبة ، واستشعرنا فيها الأُنس والمُتعة ، فلا غَرْوَ أن  
تَنَقُل بين ضاحية وجزيرة ، وبين جزيرة وصاحبة ، كمن يتشى  
بالطبيب من الرحيق ، يستسلم للكأس بعد الكأس ، وهو مُحْبُور  
التفس طروب .

أضافتنا في رحابها يوما بلدة الشاطئ . سالشويادن ،  
وقد عبرنا إليها في القطار الكهربى طريقا زائرا بالبساتين  
والغابات ، تحوطا بالحيرات الآلهة بالجزر ، تدو فيه الدور  
الرشيق كأنما هي عوامات .

هذه البلدة مصيف وادع ، طيب الهواء ، لازحة تشوب  
صفاءه ، أكثر ما فيه : حمامات ومراكب للزهوة ، وتمايل عارية  
تقام على حفاف الماء ، أو تنصب على الهضاب ، في أوضاع  
جميلة تشيع الهجة والانتعاش .

وفي أوبتنا مسن الدلة ، ارتقينا البرج المسمى مصعد

كاناريناء ، فأفضت بنا قبة البرج إلى جسر معلق تناثرت فيه  
المطاعم والأندية يحملها الجسر على ظهره ، أو يدلى بها تحته ، فإذا  
احتواك مقعدك على أحدها خيل إليك أنك في طائرة ذهبت عنها  
المحركات ، ووقفت بين السماء والأرض ، تشرف بك على  
البلدة ، وتبسط لعينيك منظرها الخلاب .

ويوما ساقنا الأدلاء إلى ضاحية « هاجانا » : فكان أول  
ما استقلنا منها مبنى عصرى الطراز ؛ تدخله فإذا أنت في  
حديقة تطل عليها الشرفات سافرة أو محجبة ، وثمة  
عرائش صفت تحتها المناضد في الهواء الطلق ، وثمة مسابيل  
ماء كأنها مرايا مجلوة تنعكس عليها ألوان الورود  
والرياحين ، وثمة جدار تطل منه تماثيل كهنة رموس أسود  
صغار ، تنبت من أفواهها شايب الماء في حوض أنيق .

وتخطو قليلاً في هذا المبنى ، فإذا أنت تمشى على أرض  
مر الصخر الأملس ، تنبت من بين أثنائه خضرة باسمته ...  
وتتابع سيرك ، فإذا أنت على مرج تبلع فيه أفياء الشجر ،  
كأنها أطفال تمرح في كسف الأميات .

أفى مَعرَض أنت للزهر والشجر ؟ ...

بل أنت فى مطعم ، وهسنا مبناه ، وإنه ليدعوك فى ذلك  
المِهْرَجَان من الخُضرة والماء أن تأخذ قسطك من طعام  
وشراب ، قبل أن تضربَ فى أرجاء المصيف الجميل .

قطعنا أشواطاً فى هذه الضاحية ، ونحن نجتازُ غابتها الشاسعة ،  
بما فيها من أشجارٍ باسقة ، وربواتٍ عالية ، ومهابطٍ غائرةٍ ،  
حتى لقد خشنا أن نَضل فى مسالكها الطريق

وعدلنا عن الغابة المشتبكة ، إلى بسيط من الخُضرة يعمُرُه  
الناس قُرادى وزرافات ، وهم يفتشون فيه أشعةَ الشمس ،  
متخفين من الثياب ، بل أشباهَ عراة ، وبين أيديهم طعامهم  
وشراهم يتناولونه على مائدة سندسية من الحشائش الزاكية ،  
نراهم حُرّاصاً على أن يستقبلوا الشمسَ أو يستدبروها لتلفحَ  
وجوههم أو ظهورهم ساعات ، فتسائل نفسك : ألعلمهم يخزنون  
تحت جلودهم ما تبعث الشمسُ الساطعةُ من حرارة ودفء ،  
لكى يعينهم حين تَغيم فوقهم السماء ، وتعدو عليهم عاديةُ البرد  
فى الشتاء ؟ ...

في مديد هذه الروضة الفسيحاء التي يقصرُ عنها الطرف .  
تعتزك دارٌ يسكنها نفر من أعضاء الأسرة المالكة ، ساذجةُ  
المظهر ، يضاء الطلعة كأنها عذراء تشيف عن طوية نقية . يحدق  
بها سورٌ من السلك الشائك ، تستينُ حدودُها به ، فلا هي تعدوه  
ولا هي يعدو عليها أحد .

وربما اعتزنتك في مسيرك أبنية آخر ، طريقة الشكل ، منها  
ما تراه على هيئة الخيمة المضروبة ، ومنها ما هو كالظلة  
المكشوفة ، وقد كانت هذه الأبنية للملوك القدامى . أما كبر  
راحة ومواطن استجمام ، فأصبحت اليوم يرتادها الجمهور في  
سراح ورواح .

وما كاد الأدلاء يُديرون بيننا حديث المدافن في هذه الضاحية  
حتى كنا إليها سراع الخطأ ، لا نبالي ما تثيره ذكرى الموت من  
وحشة وانقياض ، ولا سيما في هذه المثابة التي تتوهج فيها  
مباهج الحياة .

لقد استوفت المدافن حظها من هذا الرؤوس العطر ، إذ  
أقيمت في رحاب فساح ، رائحة التنسيق ، تبسط الأشجار عليها .

وارفَ الظلال ، وتسخو لها بألوان الأزهير ...  
نحن ، أهل الشرق ، نخطّ مدافنا في مكان قفر ، فإذا ابتغينا  
زيارتها كان علينا أن نحمل إليها الهدايا من طاقات الرِيحان ، فأما  
مدافنُ هذه الضاحية فإنها في غُنية عن ريحانٍ تحمله ، جذيرةٌ أن  
تُسهدى هي إليك ما ترخرُّ به من أزهار نواضر .  
تلك هي الضرائحُ نامية عليها الخضرة ، تتدلى من فوقها الورود  
الندية ، فنجمع إلى الهيبة والجلال لُطفا ومؤانسة .  
هنا تحفُ تباريحُ الأحزان وتجف الدموع في المحاجر ،  
ويستشعر القلب الليفُ بردَ الرضا والسُّلوان .  
في هذا الإشراق البهي ، والنضرة الباسمة ، تغدو رهبة الموت  
ألفةً ، ووحشتهُ سَكينة ، وصمتهُ مناجاة ...  
ذلك ما نحسه نحنُ الأحياء الذين يرتقبون مصيرهم المحتوم ،  
حين يقفون بتلك الروضة الحالية التي تحوِّمُ فيها أرواحُ  
الذاهبين .  
فليت شعري أيتها الأرواح الهائمة ، أيتها الأجساد الهامدة ،  
أيتها المرقى : أهذا ما تحسون ؟ أم أتم عن حياتنا غافلون ؟ ..

خطوات... في عاصمة السويد.

« الشارع » ، في مدينة « استكلم » يتيح لك أن تجتلي صورة  
صححة لأمة « السويد » البقِظة الباسمة المفتحة للحياة ... فهي  
أمامك ، على قارعة الطريق ، بحضارتها التي تسرى فيها روح  
عصرية منحددة ، وإن بدت عليها مسحة تقليدية مهيبة . والأمة  
السويدية في حقيقة أمرها بين أرسقراطية هادئة غير مسرقة .  
وديمقراطية سَمِحة غير منطرفة .

لا تطلب « الشارع » ، في الليل ، تحدوك الرغبة في لهو ومتاع .  
فا تغنيك المدينة فيما ترغبُ كبيرَ عاء ... ليست هذه مدينة  
ليل ، تحفل بأفانين اللهو الرخيص ، والمتاع الطليق ؛ ولكنها في  
الأغلب مدينة حد وتوقُر ، وما أعنى أنها خلاء من الفن ،  
فنصبتها من الفن الرفيع غيرُ منقوص ، بها مواسمُ للمسرحيات  
الغنائية . وغير الغنائية ، وفيها غير دور التمثيل الأصلية دارٌ للتمثيل  
مقصورة على عرض الروايات الانجليزية .



ولقد شهدت على جُدران أحد المسارح إعلانات ذات أسلوب رمزي، على نحو مخفّف، تذهب مذهب الفن فوق الواقعي « السورالية »... فهنا ألوان ساطعة، وهناك مكعبات ومربعات، وثمة رؤوس بلا أجسام، أو أجسام بلا رؤوس... ومن مجموع هذه الأمشاج يتولد إحياء لطيف بموضوع المسرحية المعروضة يلتفت إليه الأُنظار ! .

إذا أوغلت في « الشارع » ، والوقت ظهر ، صادفك حمام للسباحة ، مأواه ضخمضاح يبيع بالاطفال... هو لهم خاصة ، به يسبحون ويمرحون ، ومعهم زوّارق تحملهم على الماء تحت ظلال الشجر ، لا يخشون من شيء .

وأنت ترى هؤلاء الاطفال عراة في حمام السباحة ، بنين ونات ، حتى إنك ترى في جانب من الحمام تمثالا لشاب مُنْسِك يد فتاة يريدّها على أن تستحم ، وكلاهما عار تمام العُرى ، لا يستر جسده سائر ، طال أو قصر .

والعُرى في هذه المدينة من الظواهر التي تسودها . فهو فيها لا ينادى الفضيلة ، بل لعله عند أهلها من مقومات الفضيلة ...

فالتمايلُ الفنية في أرجاء المدينة كلها تمايلٌ عارية ، يعوزها ما نعارفنا على أن نسميه — نحن أبناء الشرق الوقور — التصوُّن والاحتشام !  
جقا لكل بلد ما يلائمه من الأوضاع والتقاليد ، وربما كان العرى لا يلائم جوَّ الشرق وخصائصه ... ولكن هذه التجارب التي تمارسها الأمم في رحاب الأرض جديرة أن نتعشَّن على الحدِّ مما نحن فيه من حِشمة مصنوعة ، ومن تسترٍ كثيف . فالمبالغة في التحشم والتستر سبيل إلى الكبت ، مضرٌّ للأخيلة والاحلام . وهذا الكُت والتخيُّل حربٌ على المراهقة ، وعون على الانفجار . وعسى أن يكون تبسيط الحقائق الجنسية للأطفال ، وتعويدُهم الاختلاط في باكورة العمر ، مما يباعد بينهم وبين الخيال الجنسي القاهر ، والكبت النفسى المرير .

ينصرف الأطفال عن حمامهم الخاص بهم ساعة الأصيل ، فإذا الشيوخ من الرجال والنساء يتوافدون عليه ، لا لبسحوا في مائه ، ولكن ليأخذوا بجالتهم على الحافات ، مستمتعين في هذه الساعة الانثىة بخطرآت النسيم !

ضدان من الأعمار يتعاقبان على هذا المستحَم :  
الطفولة ، والشيخوخة ... فهل هما ضدان يجتمعان ؟ أو هما  
في العقلية والمزاج شبيهان ؟ ... أترى الشيوخ هنا في  
مستحَم الأطفال يستعيدون بالذكرى ما كان لهم في طفولتهم من  
أحلام ، وما نعيموا به في الصبا من مراح ؟  
وهناك مستحَم آخر للأطفال في أحد الميادين ، مُحدق  
به الأشجار ، وتوسطه فوّارةٌ يتناثر منها الماء يمتة ويسرة ،  
فيبرد به الأطفال وهم عُراة .

وعلى ربوة فسيحة في أقصى « الشارع » يسمو بصرك إلى  
متنزه فائق كأنه معلق ، فتصعد إليه ، فإذا هو حمام سباحة للكبار ،  
تحمية أستار الشجر من فضول النظرات ، وتكفل لرواده  
مايجبون من خلوة وصفاء ... وعلى قيد خطوات من الربوة ،  
تقوم كنيسة أثرية يبدو أنها من كنائس العصور الوسطى ، وقد  
تعجب لهذا الحمام العصري ، يأبى إلا أن يجاور تلك الكنيسة  
العتيقة . ولكن هذا هو طابع « السويد » : القديم للجديد قرين ،  
ولكل مكانته ... ولا ضير على المعبد عندهم أن يشرف على حمام

السباحة ، لعله يرده عن العَبْيِّ ، ويَجْنِبُه الزَّوَات ! ...  
ولك أن تسأل: ماسر هذه الحمامات السباحية للكبار والصغار ،  
بتوغل في قلب مدينة مائية على شواطئها حمامات للسباحة ؟ ...  
ولست تجد من جواب إلا أن القوم هنالك يعملون على توفير  
الراحة والمتعة للأهلين في كل مكان ، لا يحشمونهم من كد  
ولا رَهَق .

وكما تتروّعك في هذه المدينة كثرة حمامات السباحة ،  
تتروّعك وفرة الحدائق العامة ، فهي تغازلك حيثما سريت ، في  
كل شارع ، وفي كل ميدان ... حتى إنك إذا عدلت إلى مطعم  
أو مشرب ألفت نفسك فيه مشرفا على حديقة ، وأمامك بركة  
يسبح فيها البط ، وقد حملت إليك الأنسامُ روائع الأنعام .

و « الشارع » في المدينة عامر بالحوانيت كبيرة وصغيرة ،  
فيها من السَّلَاح ما تنتجه « السويد » وما يجلب إليها من سائر  
البقاع ، فلا يعيبك أن تجد شيئا تطلبه وإن عزّ ... وما أصدق  
من سمى « أستكلم » : مدينة نيويورك الصغيرة ، أو : بنت  
نيويورك ... وهي على إعجاب بالأمم العظمى ، وتقديرى لمنزلتها

العالمية المرموقة ، أراني بالابنة الرشيدة أشدَّ شغفا ، يروقي منها  
هدوء تسكن إليه الأعصاب ، ويفتني فيها ذلك التناسق العجيب  
في ظواهر العمران . لكل شارع نظام مرسوم ، وطرار أبنية  
موحّد ، ولكل بناء ظلالات للشرفات ، يتم اختيار ألوانها عن  
ذوق فني مضني ، وإحساس بالجمال رقيق .

وإذا ابتغيت في هذه المدينة شراء شيء من الخبز ، وجدت  
الناس فيه عددهم كثير ، ولكن زحامهم لا تضيق به النفس ،  
فلا أنت مضطر أن تدفع الناس بمكبيك ، ولا أنت تتأذى  
من يدفعك ، ولا أنت متبرم بالوقوف في صف تنتظر أن  
تقدم ، ولا أنت طامع في أن يحايك البائع بتعجيل مطلبك ،  
ولا أنت مستنكر أن يفضل عليك غيرك فيؤثره بالتعجيل ...  
هناك بجانب الباب تذاكر مرقومة ، تأخذ إحداها حال  
وصولك ، وترقب أن ينادي البائع رقم تذكرتك ، فتسرع إليه  
لتشترى ما تريد .

والمطاعم في المدينة تجري على النظام الأمريكي  
القائل : اخدم نفسك نفسك ... دونك الصواني

والصحون وما إليها من عُدَّة المائدة، فاحل منها ما شئت ، وانتق  
ما اشتيت ، واجلس حيث طاب لك أن تجلس ...

وما أكثر ما في المدينة من مطاعم ومشارب ، ولا سيما  
مشارب الشاي والقهوة ، فهي محلات للأكل الخفيف ، تقدم  
فيها أصناف الكعك ، ومنوعات الشطائر والفطائر .

وتستطيع أن تضيف إلى المطاعم متاجر الفاكهة ، فالسويدي  
إذا أحس الجوع في بعض طريقه ، وضاق به وقته أن يدخل  
المطعم ، أو لم يجد في نفسه شهوة إلى ما يحتويه المطعم من ما كل ،  
فإنه لا يستكف أن يقصد بائع الفاكهة ، فيشتري موزة  
أو تفاحة أو كمثرأة ، ولا يلبث أن يقضمها في الطريق على  
أعين الناس من رائح وغاد ...

وفي شتى أرجاء المدينة جشد من المكتبات ، تزخر  
الكتب مختلفة الأنواع ، وفي بعض هذه المكتبات تعرض  
بجانب المؤلفات السويدية أحدث المطبوعات الأمريكية  
والإنجليزية ، وبينها قليل من المطبوعات الفرنسية ، أحسب أنه  
للأجانب خاصة ، فقد بدا لي أن السويدي لا يعنى باللغات

اللاجنية كيرَ عناية ، ومن العسير أن نتحدث إليه بغير لسان  
قومه ، فقلها يحسن غيره من ألسن الناس .

ومع كثرة المطاعم ، ووفرة المكتبات ، تتوالى التماثيل في  
الميادين ، وخلال الحدائق ، وبحوار الفوارات ... وليست  
كلها واقفا على إحياء التاريخ ، تمجد البطولة ، وتخلد ذكرى  
الأبطال ، فإن فيها جانبا عظيما من التماثيل الفنية لإمتاع  
الأذواق .

ولك أن تستخلص من « الشارع » الجافل بهذه المظاهر  
الثلاثة : المطعم ، والمكتبة ، والتماثيل ؛ — أن « رجل الشارع »  
السويديّ يهتم بتغذية جسمه حين يأكل ، وبتغذية عقله حين  
يقرأ ، وبتغذية روحه حين يُمتع ذوقه بفن التماثيل ... وبذلك  
يتكامل غذاؤه الذي يجعل منه نموذجا للمواطن الرشيد  
البعيد .

والمدينة لا تنسى ديمقراطيتها وتقاليدها ، وإن استوفت  
وسائل التمدّن العصري ... فكما ترى في شوارع « لوزان »  
« زوريخ » السويسرية أمورا شعبية ، ترى في أهم أحياء

مدينة وأستكهم ، سوقا للخضر والفائدة في ظلات خشية ،  
يفسد إليها حاملات السلال من ربات البيوت ، ليشترين  
ما يحتجن إليه .

هذه السوق تقوم في ميدان طليق الهواء يزدان بأعمدة  
نخمة ، أمامها نُصب فتي يمثل شاعرا موسيقيا من الإغريق ،  
وهو يعزف ويغنى ، كأنه يعلو في الجو ، وعن كذب منه حلقة  
من الغيد الحسان متطلعات إليه ، مصغيات لألحانه العذاب ....  
والقوم هنالك لم يبالوا أن يجمعوا في قلب العاصمة بين سوق  
وميدان فتي ، إجلالا لحق ناله الأهلون من قديم ؛ إذ كانوا  
يبيعون في هذا الميدان ما ينتجونه من فاكهة ومن خضر .

ومن علائم حرصهم على التقاليد أنك تسمع وقت الظهيرة  
فوسيقى عسكرية تهب الشارع أو الميدان ، فتهرع إليها مع الناس  
تأشهد ثلة من الجنود فرسانا أو مشاة ، وهم مزهوون في أردية  
زرقاء مزركشة ، وعلى رؤوسهم خوذات نحاسية تلمع صفرتها  
تحت وهج الشمس ، وتسأل : ما الخبر ؟ فتعلم أن هذا عرض  
متبع لتغيير حرس القصر ، وتغيير الحرس كل يوم يقتضى



إجراء هذه الزفة الموسيقية، وفقا للأوضاع الموروثة منذ  
أمد بعيد .

ومها يكن حذاؤك لامع الطلاء أو تكسوه غبرة ،  
فأنت راغب في استطلاع شأن هذه الظلة الخشبية الحمراء التي  
لا تتسع إلا لفرد ، وفيها كرسى يتعالى كأنه عرش ، وكأنك  
حين تتمكن عليه قد أصبحت من الغطاريف العظام ... وقلبا  
يخلو هذا العرش من جالس ، فماسحو الأحذية السويدية يزاولون  
عملا من الأعمال الراجعة ؛ وعلى الرغم من ذلك فإنهم في المدينة  
قيلة ، وظلّاتهم منتشرة في الشوارع الكبرى ، وهم يتميزون  
بالصمت المطبق ، يتولّون عملهم بلا همّرج ولا مرّج ، هيات  
أن ينبسّ أحدُهم ينْتِ شَفَة .

ولللجنس اللطيف في أعمال المدينة صَوّلة ... فالأدوية في  
الصيدليات يحضرها الفتيات الفاتنات ؛ وهن اللواتي يحصّلن  
الاجور في « الترام » ، ويقمن بالخدمة في عدد من المَشارِب  
والأندية ؛ ويعن المرطبات والمثلجات في ظلال على  
الطريق ...

وما راعني إلا أن محلات الخلاقة لا تعرف سواهن ...  
أُترّاك تنكر أن تسلم إلى المرأة رأسك ، ولا تنكر أن  
تسلم إليها قلبك ؟ ... !

أم ترّاك تخشى أن تعبت بشعرك عبثاً « دليلة » بشعر  
« شُشُون » ؟ ... !

لقد احتل الجنس اللطيف كثيرا من وظائف المدينة فيها  
شهدتُ ... ولكنني لم أصادف بين القساوسة أحدا من النساء  
البالحات ؟ ... !

وفي يوم الأحد، رأيت في ملعب هنالك جمعا من صغار الطلاب  
عرفت أنهم ليسوا من أهل البلد، على قُبَعَاتِهِمْ شَارَةُ خاصة ترمز  
إلى الإقليم الذي وفدوا منه ، وما لبثوا أن صعدوا منصّة عالية  
ومثلوا أمام الجمهور، فأشدوا بعض أناشيد ختموها بنشيدهم الوطني،  
يحوطنهم من الناس تهلل وهُتاف .

تلك بَعْثَةُ مدرسية من الصَّبِيَّة، قَدِمَتْ «السويد» لتقضى فيها  
مدة قصيرة ، فتتعرّف إلى أناس غير الذين تعرف، وتشهد بلادا  
غير التي شهدت ، وتطلع على عادات وتقاليد ، وتزور متاحف

ومعاهد ، وتستمع بألوان من اللهب والتسليّة ، فتسمع مدارككم  
لحضارات مختلفة ، وتفتح عبورها على نظم وأوضاع تزيد  
خبرتها بالحياة والأحياء...

ولقد تكاثرت أمثال هذه البعثة في البلاد الأوربية  
والأمريكية ، إذ تبادل الدول بعثات محدودة العدد لأوقات  
لا تتجاوز أسابيع ... ولعمري إنها لدراسة ما أحوج الطلبة  
إليها في طور التكوين ... فهي دراسة عملية يمارسونها في لذة  
وشغف ؛ لا يلقون فيها جهدا ، ولا يصيبهم منها ملل . وربما  
كانت أشدّ في نفوسهم أثرا من تلك الدراسات النظرية التي  
يعانونها في قراءة الكتب ، وتحصيل ما حوت من معلومات  
ومعارف .

قلتُ لنفسي ، وأنا أشهد هذا الفوج من السّياح الناشئين :  
ماذا يكون موقفُ الدول المختلفة منا نحن المصريين لورغبنا إليها  
في مثل هذا التبادل للبعثات المدرسية على أوسع نطاق ؟ ...  
لأريب عندي — ولا عند غيري — في أنها ترخّب به كل  
الترخيب ... وبذلك يسعد أبناءنا بمشاهدة العالم المتحضّر ،

ويكتسبون بالمشاهدة مالا يكتسب القاعد المقيم ! .

هذا العالم المنحضر ، يتوق أهله صغارا وكبارا أن يروا  
« مصر » ، وهم يتطلعون إليها تطلّع لاهف : فالأركان المصرية  
في المتاحف والمعارض الأوربية والأمريكية تضادف إقبالا نادرًا  
المثال ، وما من أجنبي إلا يتمنى أن تكتحل عينه بمرأى المدنّيات  
الرائعة : مدنيّة الفراعنة ، ومدينة الشرق ، والمدينة المصرية  
الحديثة ، وما تمتاز به « مصر » من جو ساحر ، ومن مناظر  
طبيعية فريدة ...

فلم لا نتيج لأبناء العالم المنحضر أن يكونوا ضيوفاً على  
« مصر » ، وهم رجال الغد ، وأصحاب المستقبل ، فنمد يئنا وبينهم  
أسباب التعارف ، ونعقد يئنا وبينهم صداقة إنسانية تعين  
عل أن تحقق على ربوع الدنيا راية السلام ... ؟

ثمانية أيام في قطار الشمس..

## السَّيُّمُ الْأَوَّلُ

عندنا يقول المثل في معرض التهديد : لأُرَيْتَكَ مجومَ  
الظَّهر ... والنجوم لا تنالها العيون إلا في جُنْح الليل ، إذ لا  
يخفق لها وميض إلا في الظلام ، فالمثل يعنى أن المرء واجد من  
الهم ومن الألم ما يظلم له نهاره ، فلا يلبث أن يرى في السواد  
نجوم السماء ، وهو من يومه في الظهيرة مازال .

ومصلحه السكك الحديدية في « السويد » تقول لك :  
لأُرَيْتَكَ شمس الليل ... يد أنها لا تبغى بك سوءاً ولا أذى ،  
ولا تريدُ لك من تهديد ولا وعيد ، وإنما هي تنظم لك رحلة إلى  
مناطق الشمال ؛ ترى هنالك الشمس طالعة في منتصف الليل ،  
فتستمتع بمشهد من مشاهد الطبيعة طريف .

هذه رحلة موسمية ، تستغرق أياماً ثمانية ، وهي تتكرر  
أربع مرات في خلال شهر « يونية » والمصلحة لا تفيد بها ربها ،  
فالفقعة فيها كبيرة ، والدخل مها قليل ، ولكنها غرض من

أغراض الدعاية مطلوب ، وسبيل إلى اجتذاب أنظار السائحين  
بقدر ملحوظ .

لست أدري أكان إسراعنا إلى الاشتراك في هذه الرحلة ،  
شوقا إلى شمس تترأى مع الليل ، أم كان استجابة لإغراء  
الظفر برحلة تُربى تكاليفها على ما تؤدي لها من أجر ؟ ...  
النفس طالعة إلى الكسب والاعتنام ، وإن يكن وهما من  
الآوهام ! ...

في نحو الساعة العاشرة من صُبح اليوم الموعود ، كان  
القطارُ في استقبالنا فخما يزهو بلونه البُرّقالى ؛ كأنه مسبحه  
الشفق . وكان كل شيء فيه ياتمم . وأكثر شيء فيه التماثل تلك  
الشارة المتجلية على كل مركبة من مركباته . شارة الشمس  
ساطعة تتوهج ..

قصدا إلى مقصورتنا من إحدى المراكبات . فألفينا على  
كل مقعد من المقاعد محفظة رشيقة تحوى قصارى ما يهتم  
الراكب أن يعرفه من شأن الرحلة ... برنامج مفصل  
تزينه المصورات . ترجمان سويدي إنجليزي مختصر . بعض

فشرات وكتيبات تتحدث عن المعالم . وأخيرا إشارة كالوسام  
يعلقها عضو الرحلة على صدره ، هي إشارة الزئملة والعضوية  
والتعارف

أشعت بصرى فى صفحات البرنامج ، فإذا هو مشحون ...  
ستطوف بأنحاء « السويد » من « أستكهلم » إلى شمال « النرويج » .  
سنمر بكُبرىات المدن ، مجتازين البحيرات والغابات والمناجم  
والسهول والحقول ... وسنلمُ بيلاد « السلاب » الطريقة ...  
سنرى شمسَ الليل !

نهضنا نتعرف قطارنا الذى بدأ يشقُ طريقه على بركة  
الله ... هذه مثابة سوف نقضى فيها ثمانية أيام بلياليها ، فلنتعرف  
من أمرها كل دقيق وجليل .

إنه قطار خاص بأعضاء الرحلة ، لا يقربه أحد غيرهم على  
مدّة الطريق ... وقد توافرت له شتى أسباب الراحة والتسلية .  
فإن شئت قلت إنه فندق متنقل من طراز رفيع . وإن شئت قلت  
إنه باخرة أرضية تستعيز عن الأمواج بقضبان من حديد .  
هناخذ للنوم ، وأنهاءً للجلوس ، ومقاصير للتدخين ، وحجر



للكتاب والمطالعة ، ومطعم ، وحان ، ورجة لعرض الأفلام  
السينمائية ، ومكتب بريد ، ودف تليفون ، تتصل منه بمن أحببت  
سباعة يقف القطار .

وفيما نحن نسير ونتفقد ، دُعينا إلى حفلة تعارف في البهو  
الكبير ، تضم رُفِيقَةَ السفر ، ودارت علينا المرطبات ، وبرز  
هندوب السكة الحديدية يقدم لنا زُملة القطار الموكل إليهم  
تنفيذ البرنامج ، والإشراف على راحتنا أثناء الرحلة . فهذا رُبَّان  
القطار ، وتلك كبرى المضيفات ، وذلك هو المضيف الأول  
أو الدليل ، وهنالك المصور ، وغير أولئك عدة من موظفين  
وموظفات .

وليس بد من أن تجتمع لهذه الزملة الرسمية سمات خاصة من  
جمال الصورة وحسن التقويم ، إلى شمائل خاصة من المراتة  
على النكتة الخفيفة ، والقدرة على الثروة الحبية والإلمام من كل  
فن بطرف ... هؤلاء الزملاء هم رفقائنا في الرحلة ، عليهم أن  
يصحبونا في الخروج والفرج والتسلية ، وأن يجالسونا على موائد  
الطعام والشراب ، وأن يسرعوا إلينا بكل ما نطلب ، ويجيبوا عن

أسئلتنا وإن تعاصت ، ويحتملوا ما عسى أن نبدى من حاجة ،  
يراققون على الرأى وإن بلغ من السخف كل مبلغ . ويقهقهون  
للنكتة وإن باخت وكانت أبرد من ليل الشتاء ... وإن على  
المضيف الأول ومن معه من الرجال واجبا آخر ، يتصاغر دونه  
كلُّ واجب ، ذلك هو أن يراقصوا عجائز النساء ! ...

وانقضى حفل التعارف فى جو لطيف مشرق تشيع فيه بهجة  
وإيناس ، ورجعنا إلى مقاعدنا نتطلع إلى النوافذ تارة ، ونسمع  
ما ضمت المحفظة تارة أخرى .

وانطلقت من مُضخم الصوت كلمات تقول :

بعد قليل نبلغ « أبسالا » فلما بانها نزلنا من القطار لثِقَاناً  
إحدى السيارات الحافلة ، وتمضى بنا فى أرجاء المدينة الهادئة التى  
تشقها قناة ، تلك المدينة التى تدين لجامعتها القديمة بالشهرة وبُعد  
الصيت ...

ما أشبهها بمدينة « ليدن » فى « هولندا » ... هما سيَّان فى  
المظهر والجو وانفساح الصدر للقناة ، وإن القديم والحديث ليلتقيان فى  
مدينة « أبسالا » على وفاق ، فهنا جانب ينفَحُ منه عطر العهود

الفوارب ، وهناك جانب ينتظر بأحدث ما وصل إليه العصر  
الحاضر .

زرنا في المدينة قصرًا ملكيا فخما يزيد عمره على أربعة  
قرون .. كانت القصور آتت تستمد فخامتها من الحجر ،  
فأظهر شيء في القصر هو الحجارة والبلاط ، وثمة صور وألواح ،  
إلى مدافئ عتيقة ، ومقاعد عجيبة من خشب وفي البهو الكبير ،  
أو بهو المآدب ، يحدثنا التاريخ أن الملكة كريستينا ، أمضت  
وثيقة التخلي عن العرش ، لا عتناقها الكاثوليكية . وليس  
البهو اليوم بمهجور ، إلا أنه قد سُمّ شهود الأحداث التاريخية  
الجسام ، فخلص الآن لبعض الحفلات تقام فيه ، وقد حافظ على  
طابعه الأصيل ، فلم يأذن للصايح الكهربائية أن تشوب سكينته  
بما لها من وهج ، فالحفلات فيه ما برحت تقام على ضوء الشموع  
من ثريات يدلى بها السقف في وقار وجلال .  
وتوخينا مبنى الجامعة : جوهر المدينة ، فراعنى منها  
المكتبة الزاخرة التي تحوى مليون كتاب ونحو ألف مجلدة ،  
من بينها مخطوطات غرائب ، وكتب دينية مصورة ، ومراسلات

شائقة بين الملوك والأمراء من رجال ونساء. ومن هذه المراسلات ما يميّط اللثام عن طوايا قلوب ! ... وقد شهدتُ فيما شهدتُ من غرائب المكتبة، كتاباً صغيراً كأنه فلم من الأفلام السينمائية، ملفوفاً على بكرة، مَصُوناً في حُقٍّ من عاج ! ...

صَدَرْنَا عن معبد العلم نشد معبد الدين . فإذا هو مبنى أحمر ، شامخُ الأبراج ، طراز بنائه قوطي ، وما اجتزنا البابَ حتى صاح أسمعنا صوتُ الأَرغُنِ بنغمه الهاديءِ الوقور ، كأنما يزف إلينا مشاهد الكنيسة الجليلة بدعائمها الرخامية على لون الرماد ، وحوائطها الحالية بصور القديسين ، ونواويسها الفخمة التي تطوى أضلاعها على أعلام من رجال الدنيا والدين . ملوك وأمراء بجانب قسيسين ورهبان ... وفي الكنيسة هيكل خشبي رائع ، ومنصّات مزخرفة مذهبة ، ونوافذُ متطاولة زجاجُها ألوان ، وعلى الزجاج رسوم ونقوش .

وجعلنا نخطو ونخطو . وصوت الأَرغُنِ من حولنا مملأ الفضاء ، أكاد أحس أنه صادر من كل شيء في الكنيسة . فكل شيء

فيها كأنه يترجم تسبيحا وصلاة ... ورأيتني أمسك عن  
الخطيئة وهنيئة . وقد تملكنتي روعة الإيمان ! وأى إيمان ؟ إيمان  
مسلم في حرم كنيسة ... ! ولم لا ؟ والرب واحد ، وإن  
اختلفت العبادات ؛ ويدت الله واحد . وإن تعددت الأسماء ...  
لم يكن عبثا أن صلى المسلمون في « أياصوفيا » كنيسة  
من بنى نقطة ، الكبرى ، وأن اتخذوها مسجدا من بعد . ما نسيت  
زورتي لهذا المسجد الكنسي ، أو هذه الكنيسة المسجدية ، وأنا في  
زهرة الصبيا . فإذا هي في عهدها الجديد كما كانت في أمسها البعيد .  
لم يتغير من معالمها إلا قليل . وكذلك رقى الواعظ من نصصة القس  
واستأنف رسالته في النصيح لله ، وانبعثت تلاوة القرآن من شرفات  
طالما انبعث منها ترتيل الإنجيل ... !

تالله إن الإيمان في جوهره لا يتفاوت . فهو اطمئنان النفس  
إلى المثل الأعلى حيث الرحمة والعطف والحب . وهو مغالبة  
الشهوات والنزوات التي تحول بين المرء وبين الخير ما استطاع  
إليه سبيلا ! ...

ودعنا الكنيسة ، وبيننا وبينها تجاوب وجداني تذكير

نعمات ذلك الأرغن الهادئ الوقور ...

وانتهى بنا السير إلى « أولد أبسالا » عاصمة « السويد » في عهد الوثنية القديم ، فلم نلق بها إلا دوارس آثار ، أظهرها تلال عالية ثلاثة ، شبيهة في عين الرائي بالأهرام ، تراب التلال ينحط على تراب من أجساد البشر ، فإن تحت التلال رفات ملوك من الوثنيين الغابرين طواهم بطن الأرض ، وإن الناس ليغتسلون هذه التلال - تلال الموتى - ليشرفوا منها على المدينة الحية ، حيث يدرج الأحياء ...

على مقربة من ذلك التراب المركوم بعض شجيرات طال عليها الأمد ، كانت فيما خلا من الدهر تتخذ مشائق ، أو تقدم للآلهة قرايين . وقد روت لنا مضيقة الرحلة قصة طريفة ترجع إلى هذا العصر الجاهلي ، قصة ملك علت به السن ، ولكنه كان بالحياة مشغوفا كل الشغف ، فكلما امتدت الأيام طلب المزيد . حتى إنه أراد بعض أولاده على أن يبدلوا أعمارهم له ، كي يضيفها إلى عمره ، فطابت بذلك أنفسهم ، وبذلوا له ما أرادهم عليه . وما زال كذلك حتى صار حطاما لا يرى سريره ، غير مستطيع .

أَنْ يَطْعَمَ وَأَنْ يَشْرَبَ، فَكَانُوا يَصُيَّبُونَ لَهُ اللَّبَنَ فِي قَرْنٍ جَوْفُهُ  
مَنْخُوبٌ ، وَطَرَفُهُ مَشْقُوبٌ ، وَيَقْرَبُونَ مِنْ قَبْلِ طَرَفِ الْقَرْنِ  
فَيَرْتَضِعُهُ كَأَيْهِ حَمَلَةُ ثَدْيٍ... وَهَكَذَا عَادَ الشَّيْخُ الْمُتَهَالِكُ طِفْلاً  
رَضِيعاً ، وَلَكِنْ مَا أَوْسَعَ الْبَوْنُ بَيْنَ طِفْلِ يَرْضَعُ لِيَسْتَقْبَلَ مَبَاهِجَ  
الْحَيَاةِ ، وَبَيْنَ طِفْلِ يَرْضَعُ لِيُضَيِّفَ إِلَى حَيَاتِهِ عِبْثاً ثَقِيلاً مِنْ  
يَأْسٍ وَخُحُولٍ ! ....

أَفْضَى بِأَقَادَةِ الرِّحْلَةِ إِلَى مَطْعَمِ اخْتَارُوهُ كَيْ تَبْلُغَ فِيهِ بَعْضُ  
الشُّطَارِ، وَتَرْتَوِي بِبَعْضِ الْمَرْطَبَاتِ... إِنَّهُ حَقٌّ أَمَّا طَعْمُ  
مِثْلِهِ فِي طَرِيقَتِهِ، مَعْنَى رَشِيقٍ ذَوِ طَبَقَتَيْنِ، صَاحِبِهِ مِنْ هَوَاةِ التَّحْفِ  
الْعَتِيقَةِ الَّتِي تَتَصَلُّ بِعَصْرِ الْوُثْنِيَّةِ ، وَهُوَ فِي هَوَاهُ مَرَهْفٌ الْحَسِ ،  
مَصْقُولٌ الذَّوْقِ ... تَجُوزُ بِحُجُرَاتِ الْمَغْنَى ، وَتَتَطَالَعُ إِلَى أَثَانَةِ  
وَمَتَاعِهِ، وَجَامَاتِهِ وَأَوَانِيهِ، وَمَا يَحْوِي مِنَ الْطَافِ وَلَوْحَاتٍ، وَمَا يَزْخُرُ  
بِهِ مِنْ قُرُونٍ وَأَسْلَاحَةٍ وَتِمَائِيلَ ، فَكَأَنَّكَ قَدْ رَجَعْتَ الْقَهْقَرَةَ بِرَبِّهِ  
إِلَى عَهْدِ الْفَرُوسِيَّةِ السُّوَيْدِيَّةِ فِي الْأَعْصُرِ الْجَالِيَةِ ، عَهْدِ أُولَئِكَ  
الْفَرَسَانِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْتَرِفُونَ الْحَرْبَ وَالضَّرْبَ ، وَيَتَفَاخَرُونَ  
بِالسَّوَادِ الَّتِي تَقْلُ الْحَدِيدَ .... وَأَنْتِ فَكَلِمَا طَالِ مَكُونُكَ فِي

هذا المطعم ، غلب عليك الظن بأنك قد أصبحت فارساً من هؤلاء الفُرسان ، فهفت نفسك إلى أن تحيا حياتهم الأولى ، وتمارس مظاهر عيشهم القديم ، ولعلك أن ترغب إلى صاحب المطعم في أن يقدم لك قرناً مُشرعاً بالشراب ، حتى تهسو منه كما كان يصنع الفُرسان في سالف الزمان ... !

اجتمع شملنا بعد ذلك عائدين إلى القطار ، فما إن احتوانا حتى سار بنا يتهادى ، وقد أمتعتنا وقفته عند ذلك البلد الذي جمع بين المعالم الوثنية والمظاهر العصرية في آن ! ... !

ودعانا داعي القطار إلى طعام ... فرأينا الأعلام المختلفة الصغيرة تزين الموائد ، وعرفنا مائدتنا بذلك العلم الأخضر الجميل ذي الهلال والثلاثة الأنجم ، وخفقت قلوبنا للوطن الحبيب تحفة اعتزاز ، وكانت لفظة كريمة أوليناها كل اعتداد وإكبار ، فلبثنا على طول الرحلة نأنس إلى علينا المعبر عن نضرة الحياة ، معطين به شخصيتنا بحوار الشخصيات الأخرى التي تمثل عدة من الأمم والبلاد .

وأمسك القطار عن سيره عند « فالون » ، ... مدينة صناعية



ذات شهرة ، كانت فيما مضى أشهر البلاد امتلاءً بمناجم النحاس .  
عماد ثروة السويد ، ، أما اليوم فإن المدينة تصنع القطارات ،  
وتجتمز المواد الكيماوية ، بعد أن انتهى مجد النحاس ، ولم يبق  
في المدينة من مناجمه إلا النزر اليسير ، ومن آثاره إلا فجوات  
واسعة عميقة ترابها أحمر أدكن ، تنطير منه رائحة قابضة ! ...  
وهناك بجوار منجم من المناجم النحاسية القديمة ، زرنا  
مُشجعا للنحاس ، فيه كل ما يقفك على طريقة استخراج  
واصطناعه فيما انقضى من الزمان ، وفيه هياكل للمناجم التي  
أصبحت أثرا بعد عين ، ونماذج من الآلات التي كانت تستخدم  
في استخراج ماحوت المناجم ، إلى نماذج من النحاس نفيسة ، تريك  
أنواعه ومصنوعاته من أوعية وآلات .

ورجعنا إلى المحطة ننظر أن يحين موعد سير القطار ،  
ووقفت أنقل البصر في أرجاء هذه المحطة ... ليس فيها جديد  
من التأثيق وتكاثف الرينة ، ولكن جمال مظهرها العادي هو  
الذي راقى منها ، وهو الذي استوقف نظري فيها ... أنت في  
محطة متألق النظافة ، حسنة التنسيق ، مريحة المستكآت ، كل شيء

فيها كما ترُوم ، لا يخلو جانبٌ من جوانبها من أزاهير تزخر بها  
الأصص ، فما يكون لك أن تضيقَ بالانتظار ، وهذه الأزاهير  
من حولك تفنن الأنظار ! ...

سألت الدليلَ في شأن هذه الرياحين التي تزدحم بها  
محطات السكك الحديدية في « السويد » ، فأجبنى بأن الحكومة  
تنفقُ في سبيل تزيين المحطات بالرياحين مليوناً ونصف مليون  
من « الكرونات » ... فأمررت يدي على جبهتي أسأل نفسي :  
متى تُعنى السكك الحديدية في بلادنا برُكاب القطارات ، لا أقول  
بإمتاعهم والترفيه عنهم ، بل أقول بتهيئة مقاعدَ توقّر لكل  
راكب راحة الجلوس ، أو راحة الوقوف !

وأثار هذا في خاطري مالا حظته في « أستكهلم » ، بل في  
« السويد » من أقصاه إلى أقصاه ، فقد خلّت هذه البلادُ مما تُسمّيه  
الثالثُ البغيض : الفقر والجهل والمرض . كل الناس متعلم ،  
وكلهم عليه روثقُ العافية ، وكلهم لا يُعوّزُه الكسب  
الكافل لعيشٍ كريم ... سواء في ذلك أهل الحواضر وأهل  
القرى جميعاً ...

عسير عليك أن تعثر في هذه البلاد على شخصٍ تأخذه العين ، لما يرتدى من ثوب هُلاهل ، أو كسوةٍ تعلوها المقاذير . فالزنى مقبول ، والنظافة شاملة ، والتعاش في مستوى لا ينكره شعورٌ إنسانى رفيف .

إنها لظاهرة عجيبة ، تبعثنى على أن أدعو إلى إيفاد بعثة إلى هذا الموطن الطيب الأمين ، تُلمِّ بما فيه من أنظمة ، وما له من أوضاع في الاجتماع والاقتصاد ، وتدرس ما يتخذ من وسائل استغلال الثروة وتنمية الحياة ، عسى أن نجد في هذه الأنظمة والأوضاع والوسائل ما يفيدُ نهضتنا الزاهنة ، تلك النهضة التي بُغى بها القضاء على ثالوثنا البغيض ، بل الخيف :  
ثالوث الجهل والفقر والمرض ....

غادر القطار د فالون ، في السادسة مساءً ، وبعد ساعة وقف  
بينما عند راتفيك ، وهي مزار للسائح ، ومُصطاف للقيم .  
تملاً لا فيها بحيرة جميلة ، وتخللها نخائل متشابكة ، وتكائر  
بينها ربوات خُضر ...

على ربوة زهراء من هذه الربوات يقوم فندق مشرف على

البحيرة رشيقي ، وفي ذلك الفندق دُعينا إلى العشاء ...  
الساعات هنا بالطعام كأنهن في لبوس «السويد» الوطني.  
المزركش ، والمشهيات يُدعو تعدُّدها وتنوعها إلى حيرة.  
تشغل الأيدي والأبصار .

ولم يرعنى على الطعام إلا هذا الذى يسمى « شرب  
الأنخاب » . . . قفيا بين لقيمة ولقيمة ، وبمناسبة وبلا مناسبة ،  
أرى المضيفة تتلو كلمة ترحيب ، ثم ترفع كأسها لتقول : فى  
صحتكم . . . فيردُّ الجمع قولها رافعين الكئوس إلى الشفاه . . .  
ولم تخل هنية فى وقت العشاء من رنين الكئوس على إيقاع هذه  
الكلمة الخالدة ، مشفوعة بصيحات ونيكات كلَّها نشوة  
وأنس ومراح .

أيتها الكلمة الساحرة : « فى صحتكم » . . . لقد سمعتُ لفظك  
مدوياً يقرع الأسماع ، ورأيت شرابك زاهياً يتصبَّب فى  
الحُلُوق ، فلم أسمع ولم أر إلا خيالا ووهما . . . لقد كان شرابى  
الذى هو « فى صحتى » أثناء تلك الوليمة الحافلة لا يعدو قدح الماء  
القُرّاح ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ! ...

انفضَّ جمع الطاعمين إلى شرفة الفندق المدرّجة ، حيث قامت  
جُوقة للغناء بين رجال ونساء في ثياب وطنية طريفة ، فغنت  
بعض مقطوعات مسلية تصحبها رقصات شارك فيها من  
شارك من رُققة السفر ! ...

وكان الليل قد أوغل ، إذ دنت الساعة من العاشرة ، ولكن  
أَيَّةُ أُمَسِيَّةٍ تلك التي نسميها ؟ ... والشمس الآن غاربة ، بل  
إن ضوءها من حولنا غامر ! ...

نهضتُ من الفندق ، والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ،  
والرقص دائر لا يفتّر ، فما شأنِي به ، وأنا لا ناقة لي فيه ...  
ولا جل !

أخذتُ إلى مخدعي في القطار ، والليلة كأنها قهراء زاهية ،  
لما يشيع فيها من ضوء الشمس التي قيل إنها في غروب ! ...  
وهكذا انقضى اليوم الأول من أيام الرحلة المرموقة ....  
رحلة قطار الشمس !

## اليوم الثاني

لحنٌ موسيقى ، صافي النغم ، كما تما هو سقسقة الطير  
الغادي مع الفجر ، يذيعه القطار في الساعة السابعة . ليوقظ به  
النائمين في أحضانه ، ويُنهي إليهم مطلعَ يوم جديد ، هو  
اليوم الثاني من أيام الرحيل ... وما هي إلا بعضُ ساعة حتى  
يطوفَ كبيرُ الأعوان بحجرات القطار ومقاصيره ، يدقُّ  
الآبواب ، ليلقَى على رفقة السفر تحية الإصباح ، كأنه  
«مُوحَّد الله» في شهر «رمضان» ، يقرع طباله وقتَ  
السَّحُور ! ...

وفي الساعة التاسعة ، كان ركبُ القطار في إحدى السيارات،  
الحافلة قاصدةً بهم بلدة سويدية ريفية ، والطريق إليها طويل ،  
ولكن المضيقة قد أعدت لِتَرْجِيَتِهِ بَرَّناجًا للتسلية ، فوزعت  
كراسية صغيرة دونت فيها أناشيد شائعة ، وما هي إلا أن  
استحالت الحافلةُ بمن فيها من الركب جوقةً موسيقيةً شعبيةً ،

أو فرقةً مدرسية تترنم بالأهازيج في بهجة واستبشار .  
وفى بعض الطريق ، وقفت الحافلة ، فنزل منها الركّاب  
إلى المَرُوج ، يرحون فيها مَرَحِ الطفولة والصَّبَا ... هؤلاء  
يَتَنَزَّهُونَ ، وأولئك يَتَدُونُ ، وآخرون يَرْمُمُونَ المناظر  
أو يرسمُ بعضهم بعضا بآلات التصوير ! ...  
وأوفتُ بنا الحافلة أخيرا على مشارفِ القرية الصيفية  
المنشودة ، وهى أحد المراعى التى تكثر فى بلاد « السويد »  
قائمة بجوار الهضاب العالية ، والجبال المكسوة بالعُشب ،  
ترتع فيها قُطعان الأبقارِ والماعز ، فى رعاية أسراب من  
الصبايا الناضرات ! ...

كان فى انتظارنا على مدخل القرية فرقة موسيقة فى زيّتها  
الوطنى ، فانطلقت بنا تعزف مقطوعات شعبية لطيفة ؛ تحية  
وحفاوة ، وتقدمتنا الفرقة تهدينا الطريق ، فرأينا أهل القرية  
يُخَيِّفُونَ لاستقبالنا من أكواخ خشبية ساذجة طريفة  
الأشكال ! ...

وبلغنا الدار التى أعدت لتضيفنا ساعة أو بعض ساعة ،

تخرج إلينا ذووها من رجال ونساء ، كبارٍ وأطفالٍ ، عليهم  
ثيابٌ بيضٌ وحرٌّ مزركشةٌ مُطرَّزةٌ ، وهم مشرقو الوجوه ،  
لا يغيضُ على ثغورهم ابتسام الإيناس ، ولا تنضب على ألسنتهم  
كلمات الترحيب .

وبين يدي هذه الدار ، ألفينا دكاكا حول موائد خشبيةٍ  
عليها طعام ... صحافٍ مُشرَّعةٍ باللبن الرائب ، وأخرى مملوءةٌ  
بمُرَبَّى الثُوت البرّيّ ، وخبزٌ رحراحٌ يلفونه أصابع ...  
وجلسنا نُصيب من هذا الطعام الريفي الأصيل في تلذذ ،  
والمراعى عن كتب منا تتنقل فيها قُطعان الماشية ، كأنها حَرَس  
الشرف في استقبال الضيوف الوافدين من بعيد ! ...

وتجلى أحدُ أرباب الدار ، وبين يديه فرن ضخيم ، فما لبثنا  
أن نفخ فيه ، فاسترسلت منه أنعام عذاب تشبهُ التقاسيم  
أو الليالي في الأغاني المصرية القومية ، كأنما يتحنن بها  
نأى رقيق ...

واحتوئنا الدار هنيئة نستريح ونفرج ، فاسترعت انتباهي  
فيما رأيت أوضاع المراقِد أو الأسرَّة ، فهي صناديق



من خشب ، داخله في الحوائط تنسدل عليها أستار  
مزرکشة ! ...

وحان انصرافنا من الدار ، فإذا أهل القرية قد اجتمعوا  
للمتحة والتوديع ، واخترقنا طريقا ساذجا متعرجا يؤدي إلى  
ساحة القرية ، أو فسائها العمام ، فكل قرية هنالك ساحة  
أو فساء ... رجة يقيم فيها الأهليون حفلات الرقص في  
المواسم والمناسبات ، تتوسطها سارية عالية مضمفوة بأفنان  
الشجر ، حولها يتحلق أولئك الأهليون ، ويدعون الرقص ،  
متناسكة أيديهم في تصايح وابتهاج ...

كذلك فعلوا ساعة وصلنا إلى الفناء ... فانضم بعضنا إلى  
حلقة الرقص ، وهم يقاسمون الأهاين تمضاحك البشر والانس  
والارتياح ...

وقد علمت أن القرويين يحتفلون في مثل هذه الساحة بعيد  
الصيف ، شهر الإشراق ؛ إذ يتقاصر الليل ، وتنشعُ الظلمة ،  
ويتواصل الضوء الساطع البهيج .

عدنا إلى الحافلة لتسير بنا إلى بلدة «مورا» ، تلك البلدة

التاريخية التي اشتهرت بحرب الاستقلال ، خلال القرن  
السادس عشر... ولم تقتصر «مورا» على تلك الشهرة الوطنية  
أو السياسية، وإنما أتيحت لها شهرة فنية جعلتها كعبة الفن  
الرفيع، فهي بلدة الرسام العالمي «زورن»، فيها داره ومتاعه  
ومرسمه، وفيها متحف يصون آثاره التي تملأ العين من  
متعة، وتملك النفس من مهابة وإكبار.

دار الرجل ذات طبقتين من الخشب، طابعها ريفي، ولكنه  
الريف المتحضر، فكل محتويات الدار تريك الفن الجميل ممزوجة  
بروح الريف وخصائصه...

الأصنوعة في الحوائط مصنوعة من الخشب الملون المزخرف،  
والمدافئ متعددة على الطراز القديم، والمشجب مازالت عليه  
معاطف الرسام وقبعاته، وثمة مجموعة من الألوان الفضية  
المنقوشة، تعد في طليعة المجموعات النادرة، إلى غير ذلك مما ينبئ عن  
حياة فنية مترفة، لا تزهد في شيء من ملذات العيش ونعيم الحياة...  
وفي الدار حجرة عصرية خص بها الرسام صديقه «أوجين»،  
ذلك الأمير الفنان الذي كان حفيا بالرسام الفنان، ينزل عنده

فى الفينة بعد الفينة ، لبتع روحه بجوفى خالص .  
وفى فناء الدار كوخان طريفان فى كل منها مرسَم ريفى  
ساذج ، وأحد هذين المرسمين مقصور على رسم النساء عاريات  
إذ كان « زورن » يهوى العُرى ، ويتجلى هذا الهوى فيما أبدع  
من رسوم .

وقد مررنا بعد ذلك بمحظيرة ماحقة بالدار ، تجمع ما كان  
يتخذ الرِّسَامُ لانتقاله ورياضته من مركبات وزلاجات .  
وزرنا متحف الفنان ، وهو مبنى عصرى يلتقى فيه الكثيرُ  
من ألوانه ، ومن أروع ما رأيته فى المتحف لوح رسم فيه  
الفنان نفسه ، وهو فى ذروة رجولته ، وأوج شهرته ... طلعة  
زاخرة بالقوة والفتوة والثقة بالنفس ، وعين نفّاذة كعين  
الصقر مفصحة عن إرادة صلبة وعزم جبار ، وقامة مبسوطة  
مكتنزة ينفج منها عطر التعانق بالحياة ، والتشهى لما تحوى من  
متع وريغاب .

لم يكن فن « زورن » أول أمره خارجا عن نطاق « المذهب  
الأسباعى القديم » ، فالخطوط ثقال ، والألوان متميزة ، ولا

شئ يبعث على التخيل والاستحياء ، فلما حل « بياريس » ، تأثر  
بالمستحدث فيها من مذاهب الرسم ، واتجه اتجاهها من بعد ،  
فأصبحت رسومه خالية من التفاصيل الجامدة ، الخطوط ترف  
رقيقاً ، والألوان منسجمة يمشى بعضها في بعض على رقة  
وتوفيق ، والمنظر لا يعطيك روعته إلا إن تناءيت عنه ،  
فإذا قاربه لم تر فيه إلا بُقْعاً من الألوان لا تُسْفِر  
عن كيان ! ...

هذا الفنان العظيم الذى دانت له الثروة ، وسعى إليه المجد ، كان  
وليد أب ألماني وأم سويدية ، يعيشان في القرية ، فقضى صباه  
معهم ما يرعى قطعان البقر ، ومالبث أبوه أن فارق الدنيا ، فاحتمل  
الفنان تبعاً الحياة في همّة ومضاء ، فهو ابن صميم لهذا  
الإقليم الشائر للاستقلال ، المشبع بروح الحرية والتعويل  
على النفس ...

ظل الفنان يعمل ويعمل ، حتى أزهرت مواهبه ، وطار  
صيته ، فارتحل إلى بلاد أوربية وأمريكية ، ومكث في « باريس » ،  
بعضَ حين ، واستقر به المقام في بلدته الطيبة ، حيث الريف

ألجيب إليه ، العزيز عليه ، وما زال فيه حتى اليوم ، تخيار روحه ،  
وتتَنَضَّر ذِكره ! ...

انبعثتُ بنا الحافلة إلى مقاطعة داليكير ، نُبسُّ فيها بجانب  
من قرى تمل الريفَ في أظهر خصائصه ... ونزلنا في إحدى  
هذه القرى ، ليضيفنا فندق ريفي " مخوف " بالأزاهير ، ومن  
دونه تمتدُّ المراعي والحقول ...

على باب هذا الفندق استقبلتنا ربَّته العجوز ، وصبايا أربع  
مشرقات يُزْهَيْنَ بلبوس وطني ، وهن يُزلقنَ إلينا النجى في  
أدب جم ، وعلى محياهن يتفرق بشر وطهر .

وجلسنا نحتسى أقداح الشاي ، والصبايا الأربع يُنشدنَ لنا  
مقطوعات شعبية رائعة ، وكل شيء حولنا يتنفس أنفاس الطبيعة  
الصافية ، والفِطْرة السمحة ، لا صنعة ولا زخرف ... فهذه  
القرية ليست موطن المحافظة على القديم في طراز البناء وحده ،  
ولا في الأثاث وحسب ، ولكنها تجمع إلى ذلك طابع المجتمع  
الريفى الذى يتميز بكرم الطبع ، وطيبة النفس ، وشيمة الصراحة  
والإخلاص ! ...

وانتقلت بنك الحافلة إلى قرية أخرى ، فاجتزنا نهرا على نشاطته نوع من الزوارق طريف ، فهي زوارق تمتاز بطولها كأنها أعدت للسباق ، ولما سألنا عنها أجبنا بحجب بأنها تسمى « زوارق الكنيسة » ، وأنها خاصة بحفلات الأعراس ، منها يتألف « مركب » العروسين وذويهما في اليوم الموعود ، فهي تمشي بالمركب إلى الكنيسة ، حيث تجزى مراسم الزواج ... !

وكان مقررا أن تناول العشاء في فندق للسياح على الطريق . واستبان لنا أنه ليس مجرد عشاء ، وإنما هي حفلة « ساهرة » ، طاهرة الذيل ، تمتد إلى الليل ... !

واستهل العشاء بالصحن التقليدي ، صحن الشطائر ، وتوالت بعده الصحون والصحاف مختلفة الألوان ، وتعددت معها الأشربة المنعشات ، وتعالى التضاحك والتصايح والتغنى ... لم يقتصر الأمر على الغناء ، وإنما صحبه الرقص ، بيد أنه رقص يؤدّيه الطاعمون وهم على المائدة لا يبرحون ... !

تلك هي المضيقة تنتخب أغنية فنلندية خفيفة ، لها مقطع يتكرر ، والرفاق المتقابلون على المائدة يأخذ بعضهم بأيدي بعض ، ويهتزون

هزّاتٍ متجاوبةً على إيقاع من ذلك المقطع المتكرر...  
حقاً إن الفنلنديين قوم ما هرون في فنّ الأكل ، أوهم على  
الأصح يحذقون فن الهضم ، فهم ينتكرون رقصات هاضمة  
أثناء الطعام ، لكي يتاح لهم أن يطيلوا على المائدة جلوسهم  
آكلين ! ...

ولم يترك الجمع مائدة الرقص ، أوركسترا المائدة حتى بلغت الساعة  
الحادية عشرة ، قبل منتصف الليل ... فعادت بنا الحافلة إلى  
القطار ، وضوء النهار الخافت يملأ الأفق ! ...  
وأذن القطار بالمسير ، متوجهاً إلى الشمال ...

## اليوم الثالث

ذلك هو القطار يجتدُّ بنا محترقا مناطق الشمال ، أو بالأحرى  
يفتحم بلاده اللأب ، ... وسيطول احتباسنا في جوف القطار ،  
إلى الثامنة من المساء ، ثم يبدأ البرّ نامجُ الموعود ...  
أنت لا شك قائل :

إذن هذا برّ نامجٌ ليليّ ساهر ....

وما هو في الحق إلا برّ نامج في ضوء الشمس ، فإن الشمس  
في هذه المنطوقة لا تؤذن بالغيوب ، ونحن نعيش هنا في  
نهار دائمٍ مديد .

الجو مبتدء ، ولكن القطار دافئ ، ونحن في بهوه على مقاعد  
بريحية تتعلّى من حولنا مشاهد الكون ... غابات من حيثما  
تتلفت ، وديابجة خضراء تكسو كل رقعة من الأرض ، وربما  
انقرجت إحدى الغابات عن بحيرة أو مسيل ماء ، ثم لا تعتم  
الغابات أن ينطبق بعضها على بعض ، يحوس خلالها القطار



الزاهي ، كائنه زهرة مضئنة تنساب بين الأعراب .  
لزمتمُ النافذة لا أريتمُ مكاني فأثارتني مضخم الصوت يدعو  
الجمع إلى المركبة الأولى ، كي يشاهدوا رواية سينمائية ، فتعوذت  
بالله من هذا الشيطان السينمائي الرجيم ، الذي يلاحقنا حتى في  
قطار هارب من أنوار المدينة ، سارب في ثاي الغاب !  
هيهات أن أترك مقعدي ، لأتعوض من هذه المناطق  
اللائية الطبيعية الطريفة مناظر من تدبير الإنسان ...  
حسبنا مكنً يا حسان هـ هـ ليلود ، ، فلتركننا وقتنا  
نستمع شيء أثمن وأغلى من جمال الكُنْ المصنوع ، هو جمال  
الطبيعة البكر ، جمال الفطرة الوحشية التي تأتلف فيها السذاجة  
والبراءة والرَّهبة الرائعة ، فلعمري إن هذه الفرصة تادرة ،  
وإن هذا اليوم مشهود .  
وبعد أن أصبنا غداةً ، أعلنت المضيئة أنا بمجازون  
بقطارنا خط المنطقة القطيصة في الخامسة ، وأن القطار  
واقف بنا هنالك لنحتفل ببلوغنا ذلك الخط الجغرافي ، في تلك  
الأصقاع ... !

وينما نحن في فرحة بهذا النبأ، إذ قالت المضيفة :  
إن عليكم أن تحذروا ما يتفشى المنطقة هنالك من بعوض ،  
وليس لكم من حيلة لا تقواء إذاه إلا أن تدهنوا وجوهكم  
وأيديكم بسائل زيتي تستطيعون الحصول عليه من صبدلية  
القطار، فلهوا إليها جميعا .

وها من هذا المخلوق البغيض الذي نراد على استقباله ،  
والمكوث معه . ما لنا ولمنطقة البعوض نسعى إليها طائعين ،  
ونقف عندها مختارين ؛ كأننا نسعى إلى زيارة حبيب  
مرموق ؟ ...

عجبتُ لأمر هذا البعوض ، ما علة انتشاره في تلك  
البقعة ؟ ... وكيف عجزت حضارة «السويد» أن تستأصل  
شأفته ، وتريح الناس من شره ؟ ...

سألت أهل الذكر من الرفاق ، فكان جوابهم أن هذه  
المنطقة تكثر فيها الماقع المتخلطه عن الأمطار ، وما أسخى  
الساء بالأمطار في تلك الديار ... والصيف في «السويد»  
لا يزيد على أشهر ثلاثة ، تشرق فيها الشمس ، ثم يقلّ

سطوعها إحيانا بعد حين ، فتتكاثف الظلمة 'مُعْظَمَ' الوقت ،  
وتسمى الأمطارُ على غابات كثة تحتفظ بالماء في أرضها الغائرة ،  
ولا تأذن لأشعة الشمس أن تخترقها وتجففها إلا بقدر قليل ،  
ومن ثم تظل الأرض مشبعة بالماء تنضح بركاً ومسائيل ،  
وليس من وراء ذلك إلا أن يتخلّق البعوض ، وبها حياة طيبة  
مباركة في أمان الله ! ...

أوفي بنا القطار على الخط الجغرافي العظيم ، فنزلنا منه  
مُطالنا شبه قرية من بعيد ، ومشينا خطوات إلى خيمة من  
« اللّاب » ، وعن كُتب من الخيمة وقف رجل فارغ القامة ،  
تهدل على وجهه لحية ناصعة مستعارة ، وتنبط على شعر رأسه  
المستعار قلنسوة صوفية كبيرة ، وقد ارتدى معطفا من الفرو  
الغليظ ، واتخذ في قدميه حذاء طويلا من الجلد الثخين ، ومن  
خوله نفر من اللايّيين أقزام ، فيهم الشيخ وفيهم الشاب  
وفيهم الصبي ، وهم في ملابس زاهية زرقاء وحمراء ، على رؤوسهم  
حراطين ذات ألوان .

وتقدمت المضيفة أمامنا إلى الرجل ورهطه ، وأشارت .

إليهم تقول : هذا صاحب الجلالة الملك « بوارا » ، ملك الإقطاع  
الشمالي القطبي ، وأولئك وزراؤه وأمناءه وحاشيته .

يا لها من مسرحية ظريفة ... مسرحية يأبون إلا أن  
يجعلوا منا نحن ركابَ القطار بعض أبطالها الأنداد فإن علينا  
أن نتداني من أعتاب المليك العظيم ، وأن نقدم له ولاءنا قبل  
أن نطأ حماهُ الأمين ! ...

وماكدنا نجهلُ ونحو جلالته المهيبة ، حتى خرجَ علينا من  
الأحراج القرية أفواج من البعوض الذي توعدتنا به مُضيفه  
القطار قبل ساعات .

إنه جيشٌ عرمرم وحقَّ السماء .... ولكنه جيشٌ صامت  
ركين ، لا يطن طنين البعوض المستضعف الذي نعهدُه في بلادنا  
للتواضعة ...

أيُّ بعوض هذا ؟ وماذا نسعى الجراد ، إن كانت هذه  
الحشرة الكبيرة الجثة من فصيلة البعوض ؟ ...

رفعتُ بصري إلى صاحب الجلالة القطبية ، ولسان حالِي  
يقول :

أهذه قواتك المسلحة الجوية يارب الساج والصولجان ؟  
أترك أطلقتها لتحيي بها ضيوفك المسلمين ، أم لتلأ بها قلوبهم  
من خشية لك وترهيب ؟ ... ما أحقك بأن تسمى ملك البعوض .  
وما أحق مملكتك اللاية بأن تزهر وتفاخر بهذا الجراد البوضي  
المبثوث ... هذا الجيش الذي ينافس أحدث أسلحة الطيران في  
جيوش الدول المتحضرة !

سمعا ملك البعوض يتكلم ، فهذا صوته العريض المجلجل .  
يلقي علينا خطبة ترحيب ، وما إن أتمها حتى مرزابه نمد له الأيدي  
مصالحين ، وتحنى له الرؤوس مكبرين . فأسلم إلينا أو سمعنا عليها  
شعار مملكته الغمراء ، وشهادت مذهب مدونة بها أسماؤنا  
تُثبت مُثولنا بين يدي عرش ، اللاب ، العظيم ...

حمدت الله على رجوعنا إلى القطار ، وقد نجونا من ذلك  
الجيش الطائر ، فلم تقم بيننا وبينه إلا مناوشات خفيفة كانت  
فيها أيدينا هي كل ما نملك لأنفسنا من دفاع .

وما كدت أجلس على مقعدي في البهو ، حتى برزت لي  
ذباب ، لا أدري من أين نجمت ؟ ذبابته واهنة من الذباب

العنكبوت المعزود ، جعلت ترف حياى على استحياء ...  
فاستكفت أن أنجبها عني ، ولو أنى علّمتُ منطق الطير  
أو على الأصح منطق الحشرات لأشعرتُ هذه الذبابة بترحيبي  
بها ، أين هي من ذلك الجراد المتوحش العتيب ، ذلك الذى كابدنا  
الحذر منه ، والتوقى له ، وفرحنا بالبُعد عنه ؟ ...

هذه ذبابة أنيسة إذا وازنّا بينها وبين بعوض « اللاب » ...  
لقد ناصبناها العداء فى « مصر » ، وكدنا لها كلّ كيد ، وأقمنا  
من شخصها تمثالا بشعا ضغما للتشهير بها وللتشجيع عليها ، وطفنا  
بتمثالها فى المسالك والدروب لينفر الناس منها ، ويطهروا الأرض  
من جرّثومتها ... فما يستطيع القوم هنا أن يصنعوا لهذا الفحل  
المستأسد الضارى حتى يكفوا أذاه أو يبيدوه ؟ ...

لطالما أنكر الإنسان مخلوقا مما حوّه ، فأنهى عليه  
بالدوم ، وظن به الشرّ كل الشر ، وإذا هو بعد حين أمام  
مخلوق جديد يجعله غير آبه بما كان ينكر من قبل ، بل  
يحسب أن ذلك المخلوق القديم ملك من الملائكة طهور ،  
فيشكر الله على أن قدر و لطف ! ...

صاح بنا مضخم الصوت في القطار ، يقول :  
الآن اجتزنا خط القطب ، فن شاء أن يكتب بطاقة  
لأهله وذويه فليفعل ، البطاقات معدة ، ومكتب البريد  
مفتوح .

سارعنا نرفّ إلى أهلنا وذوينا نبأ بطولتنا السعيدة ، بطولتنا  
افتحامننا ملكة الصقيع في فصل من فصول الزمن ليس فيه صقيع ،  
مباهين بأننا على رأس القطب ، والقطب منا بعيد بعد الشمس ،  
مفاخرين بأننا في ملكة اللاب ، ونجن لم نر من هؤلاء  
اللايين إلا ملكا زائفا تحديق به حاشية زائفة مثله ! ...

تلك هي حقيقة الحياة ، يضحك منا خلق الله مخادعين ،  
فنضحك نحن من أنفسنا مخدوعين ! ...

إنه حقا خط القطب ، ولكنه خط توهمه العلباء ،  
وحفلت به المصوّرات الجغرافية مرسوما بالقلم ، وأنت تنوهم  
أنك تتخطاه حين تتجّاز منطقة الجليد ... فإذا بحثت عنه على  
بسيط الأرض ، لم تبلغ مطمح النفس ...

هذا الفاصل القطبي يماثل خط العرض الذي يفصل

كوربا، الشمالية عن أختها الجنوبية ، وهو خط لا معالم له  
على الطبيعة إلا مخافر للجند تزينها الأعلام ، وما أشبه هذه  
المخافر بخيمة ذلك الملك الدلابي المستعار ، وما أشبه جند  
المخافر بتلك الحاشية الملكية اللابئة التي هي زيف وتمويه ...  
الأرض أرض الله ، مبسوطة لخلق الله . وما هذه القيود  
والحدود إلا خدع وأوهام ...

أدى بنا القطار إلى « جاليفار » ... بلدة صناعية في منطقة  
غنية - مناجم الحديد ، فافتتحنا زيارتها بالذهاب إلى كنيسها التي  
تختلف عما شهدت من المعابد في عديد من البلدان .

الكنيسة عصرية الطابع ، فالمبنى ليس بالضخم ولا بالفخم ،  
ولأنما هو صغير رشيق يشبه مغنى قرويا مما يقام في البلاد  
الأمريكية ، فكأنها أراد به أصحاب الكنيسة أن يصبغوا  
الدين صبغة عصرية فيها فتوة وتجديد .

على باب الكنيسة حيانا شاب «وسيم الحيا» ، مألوف الزمى،  
حسبناه بادىء بدء أحد الزوار ، وإذا هو القس ، وجهه حي  
حياء عذراء دافقة من الخدر ...



وطاف بنا القسُّ في أرجاء الكنيسة ، فلم نر إلا إشراقا  
وبساطة ورشاقة ، لا صور قدَّيسين تزحم الحوائط ، ولا  
نوافذ كبيرة زجاجها ملوّن ، ولا تماثيل عابسة تبعث  
الرهبة ، ولا ضرائح تُذكرك بِروعة الموت ، وتثير في نفسك  
وطأة الحساب والعقاب .

الصور التي تكسو الجدران صور لشجرة التفاح ، عليها  
ثمرة الفضيّ الشهيء... وكأنهم استعاضوا عمن كل شيء بهذا  
التفاح ، رمز الخطيئة الآدمية الأولى ، وشعار الخروج من  
الجنة إلى دنيا البشر ، فاتخذوا منه أسلوبا لبقا مهذباً في الوعظ  
والتذكير...!

رجال الدين في هذه البلدة قد ثاروا على ما يسودُ بيوت  
العبادة من عُرف وتقليد ، فهم يؤثرون البساطة الحقّة ،  
والإيجاء الخفيف ، وعدم أن روح الدين هي الكفيلة بالتأثير  
في النفوس ، فإن لم يكن لروح الدين تأثيرها الحر الطلق ،  
فلا خيرَ في مظاهرٍ ثقيله فاجعةٍ ليس أثرها بالباق ولا  
بالعمق...!

خرجنا نطوف ببلدة « جاليفار » ... هي بلدة عُمّال ،  
دورُها فيها على طراز ريفي عصري ، تكتمل له وسائل الراحة ،  
والطرقاتُ فيها تتوافرُ بها مظاهرُ النظافة والتنسيق .

وسرنا وقتنا فوق مناجم الحديد ، ثم بدا بجوارنا وادٍ  
منخفضٌ تتجلى فيه أبنية المناجم . وما يتصل بها من خُطوط  
السكك الحديدية المشبكة ، وقد قيل لي هنا لك إن الإنجليز  
أول من استغلوا تلك المناجم ومدّوا هذه الخطوط ، ثم خافهم  
عليها السويديون أصحابُ البلاد .

وفي البلدة قصدنا كنيسةً لائيّة متغلّلة في القدم ، أسهم في  
بنائها يومئذ أهلُ السويد بأمر من ملكهم القائم ، والكنيسةُ  
متناهيةٌ في السذاجة تحبسها الزائر مخزنا مطبقا من مخازن الحاصلات .  
وفي الساعة الحادية عشرة من هذا المساء ، والضوء في نواحي  
الآفاق كصبغة الشفق ، يحاكي ضوء ساعة الأصيل ، يودى بنا  
أن نتأهب للضعود إلى قمة الجبل ، كي نشهد شمس منتصف  
الليل ...

واحتوتنا السيارةُ الحافلة ، ونحن صامتون نأملُ فيها مستقبل

من ظواهر كونية عجيبة ، ظواهر انقلاب أوضاع الحياة في ثوبيتها  
الشروق والغروب ، وفي تعاقب الليل والنهار ...

لبثت الحافلة نحو ساعة تُعاني التصعيد في طريق جبلي  
أغبر تخلّص من مسلك وعثر إلى مسلك أشدّ وعورة ،  
حولها صخور تتلوها صخور ، وعن كثب منها حضائر المناجم  
هائلة المهوى .

سمونا بأبصارنا إلى السماء ، نلتبس عندها الخلاص من  
وعشاء الأرض وجهامة الطريق ، وعند السماء تفرّج الكربة  
وتسلية النفس ، وتلك هي السماء تمتع أبصارنا بضوء أرجواني  
لطيف يغمر الأفق ، فيبعث في نفوسنا طمأنينة ودعة .

وتسمنت بنا السيارة الحافلة بقعة كأنها القمة ، وإنها لبقعة  
نباتها بجعد سائل ، وهوأؤها قارس ، وقيل لنا انظروا في ساعاتكم  
فأتم الآن في ضياقة الشمس ، علي حين أن الليل في المنتصف ...  
وتطلعت إلى الجهة المقابلة لتلك القمة ، فألفت السحب  
بدو وتختني ، تكاثف وترق ، كأنها لثام يراى خلفه قرص  
الشمس أحمر يتوهج ...

يا لله لهذه الحسنة التي يدعوها الحياء ألاّ تُسفرَ بحسنها  
للنظر المنهوم ...

أفنى منتصف الليل نحن حقا ، أم في ساعة الغروب ؟ ...  
لقد شهدت الشمس قبيل المغرب في « الإسكندرية » على  
شاطئ البحر ، فإذا هي على نحو ما أشهدُها الآن والليل مُنتصف ...  
قرص لَمَّاح ينشرُ صبغته الأراجوانية حوالبه ، فيسحر  
الآعين ، ويهزُّ الشاعر ...

كنت أقف لأتملى هذا المشهد دقائق . وما هي إلا أن أرى  
القرص الأحمر يتهاذى في نزوله إلى البحر ، فيتلقاه الموج  
نشوان ، ولا يلبث أن يطغى وجهه ، ويطوى صفحته ،  
ويبدل الكون منه غلائل الظلام ...

أما في هذه البُقعة ، فإني أمكث الدقائق تتبّعُها الدقائق ،  
والقرص أمامي زاه خلف لثامه ، كما يتسمّى لي قائلاً :  
لا غروب اليوم أيها الهائم المفتون ، فلتتروا من التلى ما طاب  
لك أن تروى ..

وتراخى بي الوقت ، وأنا محدّق في الأفق ، أبقب ساحرة

الفلك ... فألفيتها تنتقل ناحية المشرق على رفق ، وهى على حاملها  
من التَّوَهُّجِ والسُّطُوع ...

أيها القرص العظيم ... أأنت حقا شمس المشرق التى نودّعها  
كلّ مساء بدعاءٍ من شرُفات المآذن يرنُّ فى السماء ، معلنا اختفاءك  
من الدنيا وانسلاخ آية النهار ، ثم نستقبلك عند الفجر بهذا الدعاء  
الذى تتجاوَبُ به أنحاء الفضاء ، مؤذنا بعودتك الظافرة وانتساخ  
آية الليل ؟ ...

أأنت حقّا شمسنا التى تذهب عنا كل مساء إلى مجاهل نائية  
وتتوب إلينا كلّ صباح من آفاق بعيدة ، فنعجب من اختفاءك  
الذى ليس منه بد ، وتدهشنا عودتك التى لا تتخلف ، وتخامرنا  
فيك أشتاتُ الظنون ؟

هنا على قمة هذا الجبل الصخرىّ الأَجْرَد ، نكشف خبيّة  
سرك ، ونعرف جليّة أمرك ، فلا مجاهل تقتصك ، ولا بحار  
تبتلعك ، ولا كهوف تخفيك وتحتجزُك ، وليس من ليل ينسدل  
عليك فيحملك ، ولا من مرقد لك فيه راحة إلى حين ، وإنما هو  
الإشراق الدائم والسطوع الدائب فى ماض وحاضر وآت .

لقد بنت كما أنت ... كوكبا متألقا يجرى ويجرى ، لا ألغاز  
تحيط به ، ولا غموض يشوب نصوعه ...  
ما شأنك أيتها الشمس بالخفاء والإبهام ، وأنت التي تزيحين  
عن الدنيا غواشي الظلام ؟ مالك وللأسرار والأستار ، وأنت  
عروس الوضوح والجِهار ؟  
أنت يا حسناء السماء بهجة ورؤاء ... تتجددين مع الدهر ،  
فليس لأيامه منك منال ، جمعت بين القوة والعظمة والفتنة ،  
وأفضت على الكون نورك الخلاب ، وظللت كنز الحياة ومصدر  
الخير للنبات والحيوان والجماد ، حتى فتن الناس بك فعبدوك في  
خوالى العُبود والأزمان ، وما كان عبثا أن أنظر إليك الآن في  
خشوع وإكبار ، وأنت تنخطرين مَهِيبةً على قمم الجبال ، تحف  
بك قطعُ السحاب ! ... فأنت حقاً من صنع خلاق عظيم ! ...  
أرجعنا الحافلة إلى مخادعنا في القطار ، والساعة قد جاوزت  
الواحدة بعد منتصف الليل ، والشمس مُصعّدة في برجها الرفيع ،  
معتلية الأفق البعيد ، متهيئة لتألق جديد ...  
وعلى وسادى ، أطلقت العنان لأفكاري ، وأنا في غفوة

الحالم، متراخى الأوصال...

وجال بخاطري سؤال لا يَقَرَّ له قرار :

ما حكم الصائم حين يحِلُّ به « شهرُ رمضان » ، في هذه  
الاصقاع ؟ ... إنه إزاء نهار دائم لا ينقطع ، فأين الخيط  
الأيض والخيط الأسود ، يتبين أحدهما من الآخر ، لِيُمْسِكَ  
الصائم عن طعام وشراب ؟ ...

أيظل طاولَ الشهر كمن شأنهُ صيامُ الدهر ؟

لستُ من أهل الشريعة فأفتي ، وما أنا هنا في « شهرِ  
رمضان » ، يقتضيني الأمرُ أن أستفتي ، وما أحسب هذا  
الشهر الكريم يز في هذه المنطقة القُصْوَى بصائم يطلبُ  
الفتوى ! ...

أسدلتُ ستارة النافذة ، لتحجُبَ عني ضوءَ الشمس ، حتى  
أوهم نفسي بأن الليل قد حلَّ ، وحن الاستسلامُ للنمائم ... !

## اليوم الرابع

ظللنا في القطار إلى الضحوة العالية، وقيل الظهر احتملتنا  
السيارة الحافلة إلى «بورجس» . وأصدق تسمية لها مدينة  
الشلال ، فإن فيها شلالاً عظيماً تُقام بجواره محطة كبيرة لتوليد  
الكهرباء .

كان أول عمل لنا في المدينة أن ضمنا قاعةً للحاضرات ،  
تحدث إلينا فيها مندوبٌ من هيئة العمال ، فشرح لنا مستعينا  
بالمصورات : كيف يستغلون الشلال في توليد الجوهري  
الكهربائي النفيس .

واستمتعنا بطوفة في المدينة العمالية الرشيقة ، بيوت العمال  
فيها من خشب ، وهي مقامة بحيث يسهل تفكيك أجزائها ونقلها  
إلى حيث تُريد ، لتقام من جديد .

وعلة إثارة القوم لهذه الطريقة في إقامة البيوت العمالية أن  
العمل يجري في تلك المنطقة لتنظيم الشلال ، وإقامة المحطة .



الكهربية ، وهو عملٌ ينتهى عما قليل ، ومن ثم تبطل الحاجة في المنطقة إلى العمال ، فينتقلون إلى منطقةٍ أخرى تقام فيها منشآت جديدة ، فلتنتقل معهم بيوتهم التي سكوا إليها فترةً من الزمان ، ولتتبعهم كلما رحلوا إلى ناحية ، كأنها خيامُ البدو يقوِّضونها ويحملونها معهم لينصبوها حيث ينتجعون .

سرنا صوب الشلال ، وشرعنا نزل في مهبطه ... مسلك صخرى صعب ، أرضه ريانة ، وحواليه شجيرات عجاف لا تنبت إلا بجهد ، فهو طريق لك أن تصفه بأنه عفو الطبيعة ، فما جالت فيه يد الإنسان بكثير من التمهيد والتعبيد .

كنا نقفز على الطريق نارةً ، ونتمهل نارةً أخرى نرتفع حيناً مع الأنشاز والجسور ، ونخفض حيناً مع المنحدرات والوهاد ، حتى وافينا الموضع المختار في هذا المشهد الفريد ، مشهد الجزر أو أشباه الجزر التي تواجه الشلال العظيم .

وقفنا لحظات نسرِّح البصر ... الماء فوار يرغو ، وهو يتتابع على درج الصُّخور كأنه سباع استبدت بها الضراوة

والا هتياج؁ فانقضت يلاحق بعضها بعضاً؁ وزئيرها الوحشى  
كهزيم الرعد يرتج له الفضاء .

إن هذا الموج الثائر لينزل إلينا؁ وقد انكسرت حدته؁  
وقرت شدته؁ ولكنه لايفتا متسايلا على أرض تتناثر  
فيها الأحجار...

وعندنا ترتق المسالك الصخرى الزلّقى... لكى نستأنف  
زيارة قمة الجسر؁ جسر الخزان الذى أقاموه ليحاصروا به  
الشلال عند رأسه؁ ويلجئوه إلى مضيق فيزيد ذلك من تدفق  
الشلال واندفاعه؁ ليقسر استخدامه فى التوليد الكهربى...  
سمت بنا السيارة الحافلة إلى هذا الجسر السامق؁ كما أنما هو  
الطود الباذخ؁ فألفينا قمته مستطيلة مستعرضة؁ ينفسح فيها طريقه  
مازال العمل جارياً فى إعداده .

فى هذه القمة تهيمن الصناعة على الطبيعة؁ إذ تتحكم فى الشلال  
وتخضعه لما رّب عمرانى جليل . فهذا الشلال الذى أوسعت  
الطبيعة من جوانبه؁ فبددت من قوته؁ وأضعفت من سطوته؛  
تعتمد إليه الصناعة بهذا الجسر؁ فتدفع به فى حين محدود؁ حتى

بحقق المنفعة لمعشر من بنى الإنسان ! ...

وأنت فوق هذا الجسر تنظر يمنية ، فإذا ماء ينسبط هادئاً  
كأنه بحيرة شاسعة ، وتنظر يسرة ، فتروعك المهاوى الصخرية  
السحيقة تتساقط فيها شأبيب الماء من ذروة الشلال .

هزى تتأوح الرياح كأنما أنا حقاً على ذروة جبل ...  
فقتعت من وقوفى بهذه اللحظات ، خشية أن تطوح بى الرياحُ  
المتناوحة إلى أعماق الثلج ، فأكون لها صيداً من حيث لا أريد  
أن أكون ...

وتناولنا غداءنا فى القطار ، وهو يسيرُ حثيثاً فى مناطق  
الشمال ...

الآن تحولت البقاعُ أراضى مُعشوشبةً ، وبطاحاً  
مختضلة بالماء ، وأقزاما من شجر أجردٍ مبعثر ... كل شيء  
حولنا يُشعر بالوحشة ، كأننا نرتادُ مجاهل مخوفةً بالمخاطر .  
لا ظلٌ لدار ، بل لا ظلٌ لكوخ . لم يطالعنا وجه لإنسان ، ولا  
سحنة حيوان ...

نحن نجتاز رُقعة قاحلةً تسودها البركُ والمناقع ، فهى

مملكة البعوض ، تدفأ أجنته ، ويسرى طينته ... أنكونه  
فى بلاد الأقزام من الجن ؛ تلك البلاد التى هى عماد الأساطير  
فى قصص أطفال « السويد » ؟

قيل لى إنها مواطن « اللآب » ... فأين أولئك اللآيتون  
النسرة الميامين ؟ أتراهم قد تحصنوا بالشقوق والكهوف والمغارات ؟  
لا يحبون أن تمتد إليهم الأبصار من نوافذ القطار ؟ ...

وقد زاد من عبوسة هذه البقعة أن الجو مكتمم ،  
والسحاب أقتم ، والصقيع على أديم الأرض يتساقط ...

جد القطار فى سيره ، حتى أصبحنا على مبعدة ألف وخمسة  
كيلومتر من « أستكلم » فلاحظنا أن البقعة تتغير وتتطور ...  
جبال تزهو بقاماتها العالية وتيجانها المرصعة بالثلوج ، وبحيرة  
تصاحبنا على مدى الطريق ، وربما هربت من أعيننا فى معاطف  
الوهاد ، ثم برزت ضاحكة مستبشرة من بين الفيجاج والشعاب  
ولا تلبث أن تزايل فى بطون السهول والبطاح ، كأنما تلعبننا  
لعبة الاستخفاء ...

وأمسك القطار عن سيره فى محطة « بحور كلدن » حيث يقضى

أبيلته مستكينا إليها هادىء الأنفاس .

فى تلك الأمسية خرجنا نركب الحافلة إلى فندق فى تلك المنطقة  
الخضراء الرائعة التى تكتنفها الجبال من كل جانب ، وإنها لمنطقة  
زاخرة بالمُتَمَتِّعِ لمن يَهْوَى المغامراتِ من السَّيَّاح ...  
هنا ساحة « جولف » لمن ينشُد لعبة « الجولف » ...  
وهناك نزهات على الأقدام إلى مواطنِ الجليد ...  
وثمة قبة ترحب بمن يطلب النصعيدَ فى الجبل ، يرافقه أدلاءٌ  
من « اللاب » يرتقون معه المراقي ، ويجنبونه مدايحضَ الزَّلَلِ .  
ثم يعدون له القهوة على القِمة فى جو قارٍّ تعصفُ فيه الرياح .  
لا مأرب لى فى شيء من هذا كله ، فلأقنع بغير هذا كله ... أن  
أمكث فى الفندق أمام النوافذ الفسيحة أستمتع برأى الطبيعة على  
ضوءٍ من شمس الليل ...

راعى فى ذلك الفندق أن نوافذه الواسعة منسقةٌ على هيئة  
إطارات اللوحات الكبيرة ، فأنت حين تجلسُ فى البهو ، وتبجته  
بنظرك إلى النافذة ، وترى خلفها سفح الجبل وصفحة البحيرة ،  
فكأنك حيالَ لوحة زيتية عظيمة على الجدار ، تقوم

النافذة فيها مقام الإطار ...

أمام هذه اللوحات الطبيعية الفاتنة، تناولتُ قذبحاً من الشاي،

ولقيات من الكعك، على نغمات موسيقية وديعة ...

ذلك هو الليلُ يوشكُ أن ينتصف، وهأنذا أرتدى المعطف

وأتدثر بالشَّملة، وأحكم على رأسي الطرطور، وألف حول عنقي

اللفاف، ثم أترك الفندق إلى القطار، يصافح وجهي ما يتنفس به

الجو من برودة لاسعة ...

وفي القطار حانت منى التفاتة إلى مقياس الحرارة، فإذا المقياس

يسجل درجتين فوق الصفر ...

إنه الشتاء لا ريب فيه ...

مرحبا بك يا شتاء ويولية، في منطقة القطب، منطقة انقلاب

الطبيعة المألوفة في بلاد الناس ! ...

## اليوم الخامس

رحلتنا القطارية في يومها الخامس ، وقد أوغلنا في أصقاع الشمال من بلاد « السويد » ، والقطار الآن قابع عن كَنَب من بحيرة « تورتراسك » .

اليوم يومُ رياضة أشبه بالرياضة التي يتمرس بها شباب الكشافة ، وإنا مصيدون غداءنا في العراء على ضفة البحيرة ، في بقعة خلوية هي موطن صغير من مواطن « اللآب » .

خرجنا من القطار ، وقد حمل كل منا علبه من الورق تستوعب طعامه وشرابه ، وكذلك حمل ما تمس إليه حاجته من معاطف وألحفة وشملات ... فالجو مقرر ، والريح طائشة ، فليكن معنا من الدروع ما نتق به الأذى .

هنالك على مرفأ البحيرة ، كان يرتقب وفودنا زورق بخارى ، فأما طريقنا إلى المرفأ فهو مُتَحَدِر شديد التحدر ، إنه طريق صخري ، أرضه لزوجة ماؤها ضحضاح ؛ وهو ينشق

بين أشجار متكاثفة تعوق السائر ، فلتنقل خُطانا على حذر ،  
ولسكابد السير على هذا الطريق ، وأكتافنا محملة بلقائم  
الأمّعة ، وأيدينا مثقلةٌ بعلب الطعام .

وما هي إلا أن هجمت علينا أرجال من البعوض البغيض ،  
ونحن في المأزق المخوف الذي لانحسد عليه ... أترأه التمس منا  
هذه الغيرة ، وأدرك أن أيدينا في شغل عن دفعه ، وأننا  
مجمودون بما فوق أكتافنا وما تحت أقدامنا في الطريق الوعر  
الزبل ، فطلب الطعن والنزال ، وأيقن أنه قاهرنا لا محالة ؟ ...  
مها يكن من أمره ، فلا بد من مكافئته ، فإن لسعةً منه خليقةٌ  
أن نوردنا موارد الهلاك .

وبينا نحن في جهاد عنيف ، إذ بدا لنا عن اليسار منظر  
رائع يخلب اللب ، منظر شلال هّادر ، لاندري من أين  
حَبَط ؟ هو بجوارنا يتوالب مقهقهاً لعبوا أشبه ما يكون  
بطفل مراح ، ولكأنّ به ينبجس من بين الصخور العاتية ،  
مقلنا منها ليلهم ويعبث ، وإنه ليجرى غير مكترث بشيء ،  
فتبرز له حجارة مسنونة عابسة لتكفّة عن اللهم والعبث ،



وتعيده إلى محبسه من أعلى الصخور ، ولكنها لا تملك  
له ردًا ...

أهلا بك أيها الشلال العاثر الجريء ، تتجلى علينا بروعة  
منظرِكَ ، فأنسُ بك ، على الرغم مما نحن فيه من محنة  
وحالٍ ضئلك .

هذه بُدءة عجيبةٌ ليومنا الحاضر ؛ وإنما لعنوان صحيح  
لنزهة اليوم كله ، نزهة تنسم بطابع المغامرة ، وتنسبط عليها  
صبغة طبيعية فطرية ، ليس فيها شيء من رفاهة المدينة وما  
يتوافر لها من وسائل الراحة ، وهي تريدنا على أن نكون من  
أبناء الطبيعة في هذا اليوم ، نحيا كما كان يحيا في الجبال والأدغال  
بطلها « طرزان » !

لبتنا نهبط ونهبط في ذلك الطريق المنحدر ، حتى تصببت  
جباهنا عرقا على الرغم من برودة الجو ، وتخلخلت رُكبتنا  
من فرط ما عانينا من جهد وصراع .

وبدأ لنا المرفأ ، وعلى مقربة من حافته زورق بخاري  
ساذج ، فوقفنا نتنفس أنفاس الراحة والفرحة بسلامة

الوصول ... مرفأ ليس بالممتد ولا بالمُعَبَّد ليستضيف الزوارق .  
ساذجةً أو غيرَ ساذجة ، فلم يكن أماننا إلا أن نحاول الدخول .  
إلى الزورق ، قافزين إليه قفزا .

مضى بنا هذا الزورقُ يَمْخُرُ عُبَابَ البحيرة العظيمة  
المترامية الأطراف ، تترامى على حفافها البعيدة جبالٌ خُضْرُ  
مكَلَّةٍ بالكلاج ، وأخذ الهواء من حولنا يشتد ، والزورق  
يترجرج على الموج ، ولكن فتنة الطبيعة كانت تملأ النفس من  
بهجة وانسراح .

إن الطبيعة هنا تطالعك بمختلفة الألوان ، فهذه خُضْرُ  
وزُرْقَة وبياض ، تارة تتكاثف وتارة ترق ، حيناً يتميز كل منها  
وحيناً يندمج بعضهما في بعض ، وكأنما هي عُشَّاق بين فُرْقَةٍ  
وتَلَاقٍ !

وانتهى الزورق إلى طرف البحيرة ، فكان علينا أن نقفز  
منه قفزاً كما دخلناه أول مرة ، لنعتلي هضبةً عجيبية هي الوطن  
اللاّئبي المقصود .

بقعة ساذجة جذباء ، وإن كان فيها قليل من عشب ، ونِشَار

من شجر ، وهنا وهناك أكواخ لآيئة في وهاد ونجاد ،  
حولها الماعز يرعى .

وخرج إلينا جمع من اللائيّين في ثياب زرق وحمرة ،  
يجبوتنا وبين أيديهم — من صنع أيديهم — بضاعة وطنية ...  
أحزمة من صوف ... خفاف حُمر ... عصائب زاهية ...  
مقاطع للورق من قرن الوعل أو عظمه ... إلى طرائف لا  
يزهد في شراء مثلها من يطلب تذكّار الزيارة والطواف .  
وخطونا نجوب البقعة ، وتفقد الأكواخ ، فاسترعى  
انتباهي من بينها كوخ شتوي مصنوع من سيقان الشجر ومن  
غصونه ، تعلوه طبقة من الطين المخلوط بالعشب ، وهو  
حجرة واحد مستديرة ذات باب واحد ، ونوافذ متفرقة ، كل  
ما فيه ينبيء بأن أصحابه قد أدركهم شيء من التحضّر ، فاتخذوا  
المقاعد والمتكآت وبعض الرياش ، وأقاموا فرنا يكاد  
يكون عصريا للاستدفاء وطهو الطعام ، وأسدلوا على  
النوافذ الزجاجية لطائف الأستار ، ولكنّ أثار الكوخ  
يبدو عليه طابع صناعة « اللآب » ...

ثار بنفسى ما عسى أن يثور بنفسك الآن من سؤال عن هؤلاء اللائيّين : من يكونون ؟ لقد استخبرْتُ أهل الذكر ، فعلمتُ أنهم يزيدون على ثلاثين ألفاً في المناطق الشمالية من السويد ، و النرويج ، و فنلندا ، و بلاد الروس ، منهم عشرون ألفاً في النرويج ، وحبها ، وعشرة آلاف في السويد ، ... وهم قوم لهم لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم في مجتمعهم الخاص ، ثروتهم الوعول ، مقامها عندهم مقامُ الإبل في بوادي العرب ...

ويمتاز اللائيّون بأنهم قصار القامات ، لهم جماجمُ أمّيسِلُ إلى السُمرة والاحمرار ، وأصداغ عظامها بارزة ، فأما أصلُهم فمختلّف فيه ... من قائل إن روسيا ، موطنهم الأصلي ، ومن قائل إنهم سكان إسكندنافيا ، الأصل ، شأنهم فيها شأنُ الهنود الحمر في القارة الأمريكية ...

واللايّيّون السويديّون شتّى ! منهم من يميّسون حياة الترحّل والانتقال ؛ مثلهم كمثل الأعراب القُدّامى في البادية لهم أكواخ بدائية على شكل الخيام ، لكل منها نافذة في سقفها

مفروشة بالعشب والحطب ، إذا حل بهم الشتاء تركوا الجبال  
ونزلوا إلى السطاح ، حتى إذا جاء الصيف عادوا إلى الجبال  
المخضوة بضرة ، يرون الوُعول السارية . ومنهم آخرون  
استقر بهم القرار ، يحمون لأنفسهم مساحات من الأرض ،  
ويستخدمون فيها الأبقار بدلًا من تلك الوُعول ...

وقد أنشأت الحكومة لأولئك اللابيين مدارس خاصة ،  
فيها يقضى صبيبتهم فترة ما بين السابعة والثالثة عشرة من السن ،  
فيتعلمون إلى جانب العلوم العصرية ما ينفعهم في حياتهم اللابية  
كترية الوعول والارتفاع بها على خير الوجوه ، وبين هذا  
والنشاء اللابي المتعلم طائفة تأتي أن تعود إلى أوطانها التي  
نزلت منها ، مؤثرة أن تعمل في المناجم والسكك الحديدية  
ونحوها ، فتحيا في السويد « حياة المواطن السويدي الأصل .  
حان وقت الغداء ، ففرقنا جماعات نبحث عن مأوى في  
هذه البقعة الجرداء التي تعوى فيها الرياح ، لا بقاعد إلا  
الأحجار وقطع الأشجار ، ولا ظلال إلا ما تمتدك إياه أقزام  
من الشجيرات المصوحة ... وألفيتني أندمج في مجموعة أطلق

عليها اسم المجموعة اللاتينية ، أو مجموعة البحر الأبيض ، لأنها  
تضم المصرى والأسبانى والفرنسى ، واختارنا لنا مكانا فى ظل  
كوخ مهدّم ، أحسب أنه كان يتخذ مخزنا للوقود ، واقترسنا ما  
تُسبب الأرضُ من عشب ، ووضعنا بين أيدينا العُلب التى  
حملناها معنا ، وشرعنا نُخرج ما حوت من زاد ، فإذا هو شطائرُ  
منوعة من جبن ولحم ، وألوان من رقائق الخبز ، وقنينة من  
شراب طيب ... ومرت بنا المضيئة توزع علينا القهوة الساخنة  
فى أكواب من ورق ، فوقعنا من القهوة أجمل موقع فى هذا  
الجو العاصف .

وأحرق بنا الماعز يشغو مطالباً بحقه فى الطعام ... فقدّمنا  
إليه ورقات من خس كانت تحتويها الشُّطائر ، فجعل يشمها ثم  
لوى فمه عنها . فأبدلناه بها بعضَ الخبز ، فعاف أن ينال منه ،  
وكذلك صنع حين بدلنا له اللحم ، وما قىء يحوم حولنا وهو  
يلجّ فى صياحه ... ما حيلتنا فى شأن هذا الماعز الذى يظن أننا  
من سادته أهل اللّاب ، نعرف ماذا يحبّ من طعام ؟ ...  
إننا ضيوفه فى هذه البقعة ، وليس هو لنا بضيف ، فلو أنصف

لأتاح لنا أن نَطْنَعَم من لحمه شواء رَشْرَاشاً على سبيل  
الحَفَاوة والتكريم ، بدلا من إزعاجه لنا وإلحاحه علينا بهذا  
الغَضَب والصخب ... حسبك أيها الماعز الأنيسُ أن تخلص  
منا ونخلصَ منك ، لا علينا ولا عليك ! ...

ولاح لعيني بين الأثجار شخصٌ يلتقط صوراً لجماعاتنا  
المتفرقة ... هذا مصوِّر الرحلة ، يتفحّص في أن 'يسجل' لنا  
صوراً طريفةً يفضّحنا بها ، ساعده الله ... إنه من ورائنا في  
رحلتنا مَدَسُّس يلتقط ، لآزاه في المجمّع بيننا ، ولكنه في  
الموقف الغريب يطلع علينا فجأةً ، كأنما انشقت عنه الأرض ؛  
ليسجل وضعافيه الطرافة أو الشذوذ ، وإذا نحن من بعدُ حين  
نختلف إلى مَعْرِض الصور في بهو القطار ، نرى صورنا مختلفةً  
الأوضاع ، وقد اجتمع الرفاقُ عليها يتفرّسون ويتنادرون ...  
ما أشبه مصوِّر الرحلة في القطار بالصّحفي المستطلع في  
الأندية والمَحَافِل ... المصوِّر بالمبتكر من اللّقَطّات ،  
والصحفي بالمستطرف من الروايات ، كلاهما يترصد لكل شيء  
مثير ، لبفاجيء جمهرة الناس ، بما يجري بين الناس ! ...

مشينا نطلبُ مرفأَ الزورق البخارى ، لنعود به من حيث  
أتينا... وكان البردُ على أشدّه ، والشَّحِبُ تُسَاقِطُ علينا  
الرِّذاذُ ، ورميت ببصرى فى عرض الأفق ، فرأيت دقوسَ  
قُدْرَحَ ، يَتَلَوْنَ ألوانه ، بَيِّدَ أنه بدالى هذه اللحظة كما لم يَبْدُ  
لى من قبل ، إنه لا يزهو فى السماء ، ولكنه مشبوح على سفح  
الجبل ، كأنه يتمرغ ، والجبلُ يَفْسَحُ له صدره ؛ كأنه  
حَفِىَ به ! ...

ولما ركبنا الزورق البخارى ، وأوشكنا أن نبلغ به الشاطئ ،  
فكرت فيما نحن مقبلون عليه ، الطريق الصخرى المتحدر الزلّيج  
وصديقنا الشلال على الجانب ، وهذا الرذاذ المتساقط من  
فوق ... كيف نصعد فى هذا الطريق مترجّلين ؟ لا ريب أن  
التصعيد مغامرة ليس لنا بها طاقة ، وهيات أن يكون لنا  
فيها أمان !

وما كدت أجهز بمخاوفى ، حتى ساقتنا المضيفة خلفها على  
الشاطئ ، وهى تعلن أن هناك وسيلةً أخرى معدة للتصعيد غير  
السعى على الأقدام ... ووقع بصرى على جرّارة تمائل



جرات الحرت في الربف ، لها شكل دبابة حربية ، وقد شد إليها بسلسلة ضخمة لوح خشبي عتيّ . له حواجز من قوائم خشبية تصل بينها حبال . لم أر لهذا اللوح عجلات يجرى عليها ، ولكنه معدّ لينزلق انزلاقاً على الطين في طريق وعر غير الطريق الذي انحدرنا عليه حين جئنا في الصباح .

ازدحم بنا اللوح ونحن عليه وقوف ، وتحركت الجرارة تشدُّنا صاعدين ، ولك أن تتمثل نفسك في هذا المشهد الفذّ ، أو هذا الملعب العجيب ، وقد زجّ بك على لوح يتصدّد في مسالك مشتبك الشجر ، عسير المطلاع ، فأنت بين تمايل وتحمّل وتضاغط وتساقط ، لا تملك لنفسك من سكينه ولا لجسدك من قرار .

وبينما نحن في هذه المحنة ، إذ برقت لنا آلة التصوير خلال الخنازل ، ومن خلفها المصور الماكر متحفز يسترق إلينا النظر ، وهو يوارى ما ينتج به فؤّه من ابتسامة ذهيئة ! .

وطالعنا وجه القطار ، فوثبنا إليه من اللوح وثباً ، وقد

خيل إلينا أن تلك الدبابة اللعينة تمتد وراءنا تحاول اللحاق بنا  
قبل أن نُفلت ! ...

وأوينّا إلى مخاضنا في القطار نتنفس الصُّعداء ،  
وتتناقلُ الضَّحكات من هذه المغامرة التي مارسنا فيها لونا من  
حياة الطبيعة الفطرية .

الآن نحمد لهذا اللون أننا استمتعنا بما فيه من جِدَّة ،  
وتذوقنا ما له من طرافة ، ولكتنا نحمدك بعد أن عندنا  
من المغامرة في أمن وسلام ! ...

## اليوم السادس

لم أكد أفتح عيني ، وأنظر في ساعتي ، حتى سمعت نقرات خفافاً على الباب ، يتبعها صوت قائل : صباح الخير ... استيقظوا يا سادة ... الساعة منتصف الثامنة .

لقد ظهر مرة أخرى هذا « المُسَحَّر » ، الظريف الذي يوقظ السُّوَام في القطار ، إنه هو و « المُسَحَّر » ، الشرقي في شهر رمضان ، صُنوان ، هذا يوقظ للسحور بضرب الطبل والإنشاد ، وذلك يوقظ للفقور بصوته العذب ونقراته الخفاف .

وما أسرع أن تأهبنا لنخرجَ بعد قليل ...

هذا يومنا السادس في رحلة قطار الشمس ، وهو اليوم المخصَّص لزيارة « نارفيك » ، إحدى مدن « النرويج » الساحلية في أقصى الشَّمال ، ولقد دخل بنا القطارُ أرضَ « النرويج » في الصباح المبكر ، وهأنذا الآن بجوار النافذة أنطلق ، فإذا

الطبيعة قد اكتمل لها جلال وبهاء وقتها ، ولكن في إطار من وحشة ورهبة ، فكل ما تقع عليه العين رائع أخاذ ، بيد أنه هائل مخوف .

سُور جبلي يمر القطار على حافته ، ومن تحته خليج بعيد الغور ، يتسع حتى تحسبه بحيرة ، ثم يضيق حتى تظنه قناة ، ومن حوله أسوار جبلية تطفل عليها بعض النبات ، وراح ينمو في جرأة ، ومن وراء ذلك غابات شواسع لا يدرك مداها الطرف ، وبين الفينة والفينة يلتمع شلال ضخم ترى هيجسته وتوأثبه ولا تسمع له من هدير ، وفوق ذلك كله سماء تنطير فيها أسراب الغمام الثقيل .

إنى لا تطلع حوالى ، وكأني أهرب بأنظاري من أن تنحدر لتقع في هذه المهاوى السحيقة التى يمر القطار على شفيرها الدقيق ... فما فرطت منى نظرة إليها إلا وضعت يدي على قلبي خشية أن يزيغ ، وفي كل لحظة أوجس خيفة من أن ينحرف القطار إصبعا فيلقى بنا إلى الحضيض ، حيث تمزقنا هذه الصخور المسنونة كأنها أبواب الوحش وبرائن السباع .

كيف لا يستبدُّ بي القلقُ ، والقطارُ على الحافة ، والمهوى  
بعيد ، والصخور فاعرة الأفواه للالتيقَام ... وماهى إلا أن  
تحدث الكارثة ، حتى يسود الصمت والهدوء ، وإذا النشرة  
القصيرة التالية يطالعها القوم على متون الصحف . سقط  
قطار الشمس فى بقعة تدنو من إحدى المدن الساحلية . فأودت  
السقطة بكل من فيه من الركاب ، ثم تعود الحياة سيرتها الأولى ،  
وإذا القطار المتحطم الطيب الذكر يحل محله قطار شمسٍ جديد  
حاملا على مقاعده أفواجا من السيَّاح الجدد ، يرون بالهاوية  
الضارية التى أكلت أسلافهم منذ قليل ، فيتمصصون الشفاه أو  
يتبادلون البسمات ؟

نجونا من عالم المهاوى والصخور ، وظهرت لنا قرى زروحية  
لطاف ، ثم تراءت معالم « نارفيك » . مدينة ساحلية خضراء ،  
تحف بها غابة كبيرة ، وأمامها الخليج العظيم المشهور بعمقه المسمى  
« فيورد » أو بالأحرى « فيورد أوقن » .

وأدى بنا القطار إلى ميناء المدينة ، ذلك الميناء الذى يبدو  
كأنما شيدته الطبيعة فأحسنَت تشييده فى بقعة لها من نفسها حماية

وقد ألفينا شواطئ المدينة مجهزة بأحدث الآلات والمنشآت  
العصرية لإنتاج الحديد ، « فالمدينة » - فيما يقول أهلها - مدينة  
تتقدمها وعظمتها لحديد « السويد » ؛ إذ هي « وطن مهم من مواطن  
تصديره إلى شتى البقاع .

هنالك تركنا القطار ، واستمروا عَبتنا سيارة حافلة أوصلتنا إلى  
وصيف مرّكب للتعديّة ، فاحتوانا نحنُ والسيارة الحافلة ، وعبر  
بنا جميعا هذا « الفيورد » العظيم . ثم خرجنا من مركب التعديّة  
لنقلنا السيارة الحافلة متزهين بها في صحبة الخليج ، مُصعدين في  
جبل مُشرف عليه .

طال بنا الطريقُ ، ولكنّ المرتقى سهل ، والبقعة مؤنسة ،  
المراعى الخضراء من حيثما ننظر ، والخليج يستشرف لنا كأنما  
يتجدّد كلما امتد بنا السير ، والجبال النائية متشاخّة أمامنا تكسو  
رءوسها الثلوج ، كأنها جلال المشيب ، والشلالات لامعة لأعينه  
تخيوط من الفضة تنساب على السفوح ، وفي جهات عالية تتراءى  
بحيرات كأنها لآلى تزين صدور الجبال .

وكان القائمون على الرحلة قد زوّدوا ركاب قطار الشمس في

« نارفيك » ثلاث من حسان « النرويج » لينهض بمهمة الترجمة والتعريف ، وهن ذات أدب جم . وإن كن يتمتعن بقسط كبير من الرقة والظرف ، والقدرة على إشاعة الطرب والمراح ، فما لبثت السيارة الحافلة أن استحالت بفضلهن ملهى . أنيسا لم يعوزه إلا المعازف ، ولا غرو ألا يشعر الركب بمضى ساعة أو أكثر في التصعيد على هذا الطريق ... !

شداً ما أمتعنى جمال هذا « الفيورد » الأخضر ، كأنه نهر مزدهر ، وإنهم في « النرويج » ليطلقون هذا الاسم على كل خليج بحرى يقتحم الأرض ، ويخترق منها المراحل الطوال ، فكان المحيط الأعظم يتدسس في خفايا البلاد ... وأمثال هذا الخليج كثيرة على شواطئ « النرويج » ، وهى تتفرع فروعاً شتى ، متغلغلة في مناطق صخرية عنيدة ، أو متسللة بين جبال ندية خضراء .

وقفت بنا السيارة الحافلة في شبه قمة يقوم عليها فندق رائع الموقع : « الفيورد » العظيم من تحته ، والجبال بنلوجها وخضرتها وغاباتها حوالى البيه ، وإنه حقاً لوح نادر من لوحات الطبيعة الفاتنة

هذا الفندق جديد البناء ، شيد حديثاً على أنقاض فندق  
هدمه «اللمان» في غضون الحرب العالمية الماضية ، وما أعجب  
هؤلاء الألمان إذ يتخذون لوقائع الحديد والنار مثل هذا الموقع  
الساحر الذى يوحى بالأمن والطمأنينة والسلام ! ...

تناولنا غداءنا فى الفندق ، وترشفنا هنالك أقذاح القهوة  
ثم رجعنا إلى «نارفيك» ، نجول بأقدامنا فى تلك المدينة التى لم  
تخلص بعد من آثار الحرب ، وإن كانت يد التعمير والتجميل  
تعمل فيها لا تهدأ

حقاً إن مستوى الحياة فى «النرويج» مستوى طيب ، ولكن  
عليه طابع التقشف ، فخطته من الترف غير كبير .  
عادت بنا الحافلة إلى القطار ، فارتدنا إلى «السويد» ،  
مزعماً أن يبيت ليلته فى مدينة من مدنها الصناعية ذات اشتهار ...



## اليوم السابع

ذلك هو القطار مستقرّ بنا في مدينة «كورونا» تلك المدينة  
العظيمة التي هي موطن لنا جـم الحديد . وكان علينا نحن — سكان  
قطار الشمس — في ليلة يومنا السابع من أيام الرحلة ، أن نختار  
بين ثلاث :

فإما كان مبيتُنَا في القطار ، منتظرين إلى الصبح ، لنجول  
جولة تبين بها معالم المدينة ، ونجتنى ما فيها من آثار .  
وإما خرجنا كذلك في الصباح ، لنقضى وقتاً في نزهة إلى «الرابدز»  
على متن قارب بخاريّ يكابد تيّار النهر .  
وإما كان خروجنا منذ هذه العشية ، نطلبُ الصيد في بحيرة  
يجوار موطن لا ينيّ عريق .

واختلفت أهواء الرفاق ، بين هذه الخُطَط الثلاث ،  
فأفترقنا ثلاث مجموعاتٍ ، لكل منها طريق .  
واخترنا نحن الخُطّة الأولى ، فهي أيسرُ علينا وأحبُّ إلينا

من كلتا الخطتين الآخرين؛ إذ كانتا مبعأمرتين لا قبل لنا بما  
تقضيانه من مشقة وتصب .

أقلستنا السيارة الحافلة في الصباح تجوب بنا أنحاء المدينة  
فرأينا مناجم الحديد فسيحة الأرجاء متجهمة ، ولكن هذه  
المدينة الصناعية التي يعمرها العمال تبدو مشرقة وضاحة  
الأشجار تزين الطرق ، والنبات متناثرة ، والحدائق كثيرة ،  
والمنازل العمالية منسقة عليها رونق ، وثمة هضبة نعلوها  
فتشرف بنا على بحيرة جميلة تتخيل حوالها أشباح الجبال عالية  
تغطيها الثلوج .

واستجبنا لدعوة كريمة من أستاذة سويدية أن نزور بيتها  
وتتناول معها قدحاً من القهوة ، وهي تسكن مع زوجها في مغنى  
رشيق ، الطبقة الدنيا منه مثابة للتخف ، والطبقة العليا للسقام .  
هذه الأستاذة أمرها عجيب ، فهي معلّمة في مدرسة  
لايئة ، وهي فنانة تهوى الرسم والتصوير ، وهي فوق ذلك كله  
تتعشق عشيرة اللاب ، ، ولذلك وقفت جانباً كبيراً من وقتها  
على دراسة حياتهم في مجتمعاتهم الخاص .

حللنا دار الأستاذة الفنانة ، خفت لاستقبالنا في ثياب لائبة وطنية ... سيدة قصيرة القامة ، حمراء البشرة ، مشرقة الوجه ، على ثغرها ابتسامة لا تبرح ، وكأنها لفرط شغفها بعشرة اللاب وحرصها على اتخاذ الزمى اللابى الوطنى ، وما أفادت من خبرة بهذه العشيرة ، قد اكتسبت سحنة هؤلاء اللابيين الأصلاء ، فلاحت بينها وبينهم مشابهة كثيرة ، بل أصبحت منهم فى الصميم .

وقامت على خدمتنا صبيبة وسيمة المحيّا ، ترتدى ثياب اللاب ، أيضا ، وأخبرتنا ربة الدار بأن هذه الصبية لاية مُعْرِقة ، ولكنها متحضرة فراغى أن نحتنأ سويدية على الرغم مما يجرى فى عروقها من دم اللاب ، ، وما يكسوها من زيهم الوطنى .

واستبدّ بى العجب لسيدة سويدية ، لاتكاد تراها حتى تحكم بأنها من اللابيين ، وصيبة لاية لو طلب إليك أن تقسم على أنها سويدية لأقسمت !

ما أعظم أثر النفس فى تقويم الأجساد والسّحن ، فهذه السيدة

التي هويتُ عشيرة « اللاب » ، وأرادت أن تكون منها وإن لم تكن ، تراودا قد انقلبت سحُنُها فإذا هي كما أرادت أن تكون ، وتلك الصبيةُ الزلاية التي هفتُ روحها إلى أن تكون سويدية متحضرة لم يعز عليها أن تنالَ مطمحَ الروح ..

حقا إن النفس لقادرة على أن تصنع الأعاجيب ، وتأتى بالمعجزات .

نهضنا نجوبُ الدار في صحبة الأستاذة المُنانة ، فألفينا الطرفَ اللطاف في كل ركن وعلى كل جدار ... طرف تمثل حياة اللابيين في مختلف مظاهرها ، فتلك أوائهم وخارجهم وتمائمهم ومنسوجاتهم وسائر ما لهم من أثاث ومتاع .

وانبرت الأستاذة تشرح لنا كل طرفة تقع عليها العين ، وتحدث إلينا حديث أصحابها اللابيين ، فوعت أسماعتنا محاضرة مفيدة مستبضة . كأننا في معهد درس وقاعة محاضرات ، وإن خلا الجوُّ من السّامة التي يشعر بها من يجلس بين أيدي المدرسين والمحاضرين ... !

هؤلاء اللابيون كما أسلفت عليك من أقدم سكان « السويد »

كانوا وثنيين في عهد عَبر ، لهم جباهم المقدسة التي يزلفون إليها  
القرايين ، ولهم آلهة ينحتونها على أشكال بدائية من الحجر ، وهم  
الآن على دين المسيح ، في كنائس النصارى يتعبدون ، ولكن  
لهم في مناطقهم كنائسهم اللاية الخاصة .

وقد نبغ من اللايين المتحضرين نفر معدودون ، من بينهم  
فنان كان رساما وكاتباً وفيلسوفاً في آن ... وقد اختص برسم  
الوعول قطعاناً وفرادي ، وحدق تصريف الألوان أيما حدق ،  
إذا رأيت رسمه لجماعات الوعول فكأنك ترى أفواجا بشرية في  
طريق الهجرة ، وإذا شهدت الرسم من بعيد فكأنك تشهد أسراباً  
من النمل تدب على مهاد الأرض ...

هذا الفنان لم ينهج في رسومه نهج فنان قبله ، ولم ينسج على  
منوال غيره ، فما كان له من معلم يهديه ، وإنما دفعته الموهبة إلى  
الخروج ، بفرج بنفسه ، يعلم نفسه ، وإذا هو صاحب تجديد وابتكار .  
مضينا بعد الظهر نزور بقعة تاريخية كانت مألفاً لقوم  
« اللآب » فيما مضى ، ولم يبق منها اليوم إلا كنيسة لاية أثرية .  
وقد رأى السويديون أن يحبوذا ذكرى هذه البقعة ، فأقاموا

بجوار الكنيسة مُتَحَفاً حياً من متاحف الهواء الطلق، تمثل فيه حياة السويديين القديمة وحياة اللاب . . وهذا المتحف الحى رقعة مسورة تحوى بعض الأبنية الأثرية ، ومن هذه الأبنية مسكن قديم جعلوه الآن أشبه بفندق أُوخان ، فيه حُجَرٌ للمبيت بأجر قليل ومن طلب الطعام فيه وجدّه، وذلك المبنى قديم متغلغل فى القدم . طريف فى كيانه الخشبي ، تنسّق له أسباب الراحة على النحو العصري ، ففيه وسائل التدفئة وأدوات الأكل ومُعدّات النوم وقد ترشّفنا هنالك أقداح القهوة ، مشفوعة بشذرات من كعك لذيذ المذاق .

ونشطننا إلى التفرّج فى غير هذا الفندق أو هذا الخان ، فتوخينا مبنى آخر ليس بأحدث منه عهداً ولا أقل طرافة ، بل يزيد عليه أنه باق على حاله ، لم تمسه يد الحضارة العصرية ، وهو يمثل داراً ريفية لرجل من سُرّة الريف السويديين الأقدمين ، من حل بها فكأنما انتقل إلى تلك العُهود الخالية ، يشارك أهلها حياتهم وما يُزاولون من عيش ، يأكل فى أوعيتهم النحاسية الساذجة ، وينام فى أسرّتهم التى تشبه صناديق كبيرة عليها أستارٌ غلاظٌ .

ويتدفأ بجوار مدفأهم الضخمة البدائية ، ويرى كيف يستعملون  
فرن الخبز ، وكيف يطهرون الطعام ، وماذا كان لهم من آلة  
الصيد وعدة الخيل ... فلقد توفقت — وأنا في جوف تلك  
الدار — أنى أعيش في ضيافة رجل من سراة الريف في العهود  
السوِّالف ، أنعم بسذاجة هائلة !

ولما خرجنا إلى الفناء وغابت عنا معالم تلك الدار، وانبسّط  
بين أيدينا بعض الصحف اليومية بعنواناتها التي تحمل مشكلات  
السياسة وتطاحن الزعماء ، أيقنت أننا قد عدنا سريعا إلى حياتنا  
العصرية ، نعاني حرب الأعصاب ، وثرثرة الصحف ، قترحنا  
على تلك الحياة البريئة الساذجة التي قضيناها في ضيافة ذلك السري  
الريفي القديم !

قصدنا بعد ذلك إلى منزل لابي شتوى ، إنه كعيره من  
المنازل اللائقة خشبي مستدير عليه طباق من الطين المخلوط بالعشب  
وهو في داخله كشأنه في أمسه البعيد ، في وسطه نار توقد للتدفئة  
وفي سقفه طاق هو النافذة اليتيمة في المنزل كله ، ولا مقعد ولا  
مكتأ ولا سرير ، كل ما هنالك للنوم أغصان من الشجر جافة

تنبسط على الأرض ، فأى حشيه أو وسادة هذه اثني تقض .  
المضجع ، وتبعث الأرق ؟

أما المنزل الصيفي لعشيرة « اللاب » فهو خيمة أو شبه خيمة ،  
حولها سياج يمنع الحيوان السارب أن يقتحم ، وهذا المنزل أظهر  
سداجة وأقل تحضرا من صنوه المنزل الشتوي .

ورأيت عن كتب من هاتين الدارين بعض ظلال  
مرصعه ، تقوم كل مها على عمود ، يحتزنون في أعلاها .  
أشتات المئونة ، وما أحقها بأن تسمى « الصوامع الهوائية » ،  
كصوامع القمح والذرة في ريفنا المصري ، واللايئون يتخذون  
هذه الظلال في العابات ، ليصيبوا منها زادهم وهم على الطريق .  
وقد أقاموها على الأعمدة لكي يحموها من عدوان الحيوان .  
وثمة خيمة خليفة أن تسمى : مأوى الأرباب ، فقد ضمت  
آلهة « اللاب » ، في عصرهم الوثني ، قبل أن يدخلوا في  
دين المسيح ، وما هذه الآلهة إلا أحجارهم غلطف  
لا تنطق لها سمات ، ولا تميز بها أشكال ؛ إذ لم تُصب من الفن  
حظا ذل أو كثر .



وغير بعيد من هذه الخيمة قوارب صغار لها أغطية كالصناديق ، وكانت هذه القوارب تستخدم لنقل الأثاث وما إليه ، تجرّها العول على أرض الجليل .

وفي هذه المنطقة اللابية الأثرية ، أقامت « السويد » مدارسها الخاصة بأبناء « اللاب » ، فيها يتعلمون ، ومنها يعودون إلى مواطنهم الأصلية في مناطق متفرقة ، إلا قليلاً منهم تسنبلهم الحضارة العصرية ، وتفتنهم عن حياة قومهم « اللاب » .

فرغنا من زيارتنا لذلك المتحف اللابي الحي ، ورجعنا إلى قطارنا ناوى إليه ، فالتقينا بمن اختاروا غير خطتنا في النزّه والارتحال .

فأما الذين ذهبوا منهم إلى « الرابذ » فقد تحدّثوا إلينا أنهم قضوا قرابة خمس ساعات في قارب بخارى ساذج يقوده نوتيون خبراء ، قارب عليه دكّك خشبية ليست لها مساند ولا ظهور ، وجرى بهم القارب في نهر يفاجهم تباره في الفينة بعد الفينة ، فيعمل النوتيون على أن يحكوا زمام القارب ، حتى لا يبعث به التيار ، والركب يناوشهم رشاش الموج بمئة

ويسرة ، والريح تميد بأجسامهم فيتهاشكون ويتساندون ، وهم يتقنون وطأة البرد بالأردية الثقال ، حتى يلقي بهم الموج بعد لآى فى أرض جرداء مقفرة ليس بها أنيس ! .

وأما الذين آثروا مغامرة الصيد ، فإنهم خرجوا إليها مع الليل ، يحتذون النعال الغلاظ ، ويحملون المعاطف والألقعة الواقية من وقع المطر واشتداد الريح ، وجعلوا يسيرون ساعات فى مجاهل من غابات وبطاح تنخللها المناقع ، والأرض من تحتهم معشوشبة لزجة مشبعه بالماء ، والجو حوالىهم يُعربد فيه زيفُ الهواء ... وأفضى بهم المسير إلى قرية صغيرة من قرى « اللاب » ، فأوهم تلك الدار اللاية المعهودة ذات الحجرة المستديرة والطاق النافذ من السقف ، وجلسوا هناك للراحة بعض وقت ، يتسلغون بشئ من الطعام ، ويترشفون أقداح القهوة ، ويستدفئون بالنار الموقدة ، وقد تجمعوا أمامها مقرورين على الأرض الصلدة أو على حشيرة من يابس الأغصان ، وجوههم تكاد تلمحها ألسنة النار ، وظهورهم يبعث بها وخزُ البرد القارس ، فكل منهم كأنما هو

نصفان : نصف في خط الاستواء ، ونصف على رأس القطب ،  
فما في وسع النار أن تشيع دفتها في شتى أرجاء الدار !...  
وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم بعوض مخيف كالفراس المبثوث ،  
ينهل من دمائهم ما ساغ له أن ينهل ، وقيل لهم إن النهر من  
مكانهم قريب : فمن شاء أن يصطاد فيه خطا إليه ، والساعة وقتئذ  
قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، أغنى هذا الليل النهاري  
العجيب الذي لا يغيب فيه ضوء الشمس ، فلم يهش أحد منهم  
للخروج من أجل الحصول على صيد النهر ، وكيف لهم أن  
يصطادوا وقد أصبحوا في حالهم تلك هم السمك في الجبال  
والشباك ؟ فليعموا — أو فليشفوا — بنومة ساعة أو بعض  
ساعة ، يحرسهم ذلك البعوض الظامئ إلى ما يجري في عروقهم  
من دماء ، وليثوبوا إلينا راضين من الغيمة بالإياب !...  
قادة الرحلة — رحلة قطار الشمس — لا يتوانون في توفير  
ألوان المتع للراكبين المختلفين أهواء ومشارب ، وهم يدبّرون من  
بين النزعات ما هو ثقيل شاق ، إذ يعلنون أن بين الرفاق من  
تستهويهم المغامرة وركوب الأخطار ، فهم يطلبونها طلبا ،

ويسعون إليها سعيًا ، ولا يتغنون بها بدلا ...

هؤلاء لا يقنعون بمراى كوخ تتمثل فيه حياة قوم « اللاب » .  
وإنما يأبون إلا أن يغرزوا الأقدام فى أرض لا يئىة لزجة  
معشوشة ، ويخصوا منافع لا ية بنظائر حولها بعوص لا ية  
قارص ، ويدخلوا أكواما لا ية فى جو لاسع وريح عاصف ،  
ويصطلوا بنار لا ية جالسين القرمضاء ، وباموا على وراش  
لا ية شائك من أغصان الشجر !

وغير هؤلاء جمع لا يرضيهم ولا يشفى غليلهم أن يشهدوا  
من بعيد تيار الموج المتدفع يتلعب بالقوارب ، فلا بد لهم أن  
يغتلاوا من هذه القوارب متونها ، ويترنخوا على دكا كها ، حتى تلقى  
بهم الأمواج إلى أرض مقفرة لكى يستشعروا رهة الماء .  
ووحشة البقاع الجرداء ! ..

أولئك وهؤلاء يملكهم حب المغامرة ، فهم يستمرثون  
متعهم فى احتمال المشقة ومكابدة العاء ! ... وإن قادة الرحلة  
ليفطون إلى ذلك كله فى أنفس الناس ، فيتبحون لكل امرى  
من رفقة السفر أن يبلغ هواه ويدرك مناد ! ...

## اليوم الثامن

طَرَقَ «المُسَحَّر» ، الظريفُ بَابنا ، وهو يترنم بحملته  
المعمودة :

صاح الأخير ... استيقظوا يا سادة ... الفطور  
مُعَدّ .

وقفزت من السرير ، وقد تذكرت أن برنامَج هذه  
اليوم الثامن الأخير من أيام رحلة قطار الشمس ، يقتضينا أن  
نصحو مبكرين ؛ لبطالعتنا النهرُ الذي يحمل كتل الخشب  
على مَثنه ، فقد أفرد القوم هذا اليومَ لزيارة موطن الخشب ،  
نعرف منه . كيف يحتمله النهر من حيث يُقتلَع وكيف يفرز .  
في نهاية المرحلة ، وكيف يوزع على أصحابه ، وكيف يجهز بعد ذلك  
أشكالا مختلفة في مناشيرَ يسمونها : طواحين النشْر ؟  
هذا حقا يومُ الخشب ... وإن الخشب ليُجَنَّب من .

غابات عظيمة في ذلك الإقليم ، فلاغرو أن نرى المناشير ترُصعُ  
البقعة أدناها وأقصاها .

بصُرْتُ من النافذة بكتل الخشب تغطي صمحةَ النهر ،  
فإن العمل فيه يكاد يكون مقصوراً على نقل تلك الكتل ،  
وكانما هو لها مطيةٌ ذلول لا تكل ولا تسأم ، على أنه ساحر  
المنظر ، لم يشوه جماله ما يحمل ... وما له لا يصبر على أحماله  
وهي نتاجه من الغابة العظيمة حوله ، فليفسح لها حضنه كما يفسح  
الأب صدره لبنيه ، ولينقلها إلى حيث تؤدي مهمة في الحياة ، كما  
هو شأن كل ما في الحياة من حيوان ونبات وجماد ...

ما أروعك أيها النهر ، وأنت تشق الفِجَاجَ المتحدرة على  
جانبيك ، وهي تزهو لك بخضرتها الناضرة ، كأنما كَسَّاهَا  
سَاطُ من سمائل ،

صاح بنا مضخم الصوت يقول

بعد قليل نقفُ عند الشلال .

وما لبثنا أن سمعنا لدَفْقِ الماء هديرأ يعلو على ضجيج  
القطار وهو يسير ، وألفينا القطار يعبرُ جسراً على الشلال ،

ثم وقف في منتصف الجسر ، ليمتّع الركب هنيئة بهذا المنظر الطبيعي الأخاذ .

إن الشلال يبدو من حَيِّية ، يحيط به ألفافُ الغابة وكأنه من الغابة نفسها ينبع ، وإنك لترى ماءه ماديء مديء يجري هاديء الحيرية ، حتى إذا أصبح في البقعة التي يقوم فوقها القطار وجدته قد هَاح وهَاج ، وأرغى وأزبد ، وكأنما قد أصابته جسة ، فراح يتلاعب على الصخور هاربا إلى القرار ، ثم إذا هو ينسطل صفحه من رغو أبيض مسترسل في لهو ومعاشة ؛ كأنه يقهقه حتى يطفو عليه زبد .

استأنف القطار مسيره حتى بلغ محطة التوليد الكهربائي على شلال آخر ، بيد أن القوم لم يُرْخُوا له العنان كشأن ذلك الشلال الذي فارقه منذ وقت ، وإنما أرادوا الانتفاع به ، فسيطروا عليه ، وفرصوا له نظاما في القفز والجريان ، فأذعن وأطاع .

هنالك خرجنا من القطار ، لتقلتنا السيارة الحافلة ، فعبرت بنا جسرا عظيما ، ثم أخذت تصعد في الغابة ، ونحن دائما من النهر على قرب ، يدولنا من خلال الشجر ، ويطلنا محبناه حين

تجتاز الحقول والسهول .

ووزعت علينا المضيقة الأنيسة كراتٍ بها ألحان موسيقى ،  
معلنة فترة إنشاد وترنيم . وكأنها تريد بذلك أن تشعشع في مفاتيح  
الطبيعة روائع الأنعام .

وأشرفنا في بعض الطريق على منفسح من النهر كأنه في هَيْبَتِهِ  
بحرٌ مُزِيد . أشعة الشمس تلمع عليه كأنها سَمَطُ اللؤلؤ ،  
والغابات تتعالى على ضيفتيه ، ملقبة بظلالها حنيناً إليه ، والمروج  
على حافة تزيينها من الأزاهير ألوان ، فسرحت بصرى مسحوراً بهذا  
الموقع الذي تغنى به الشعراء والكتاب ، وكان لهم مثاروحي وإلهام .  
وضقتُ ذرعا بهذه الأغاني والأناشيد ، ترتفع بها أصوات  
الرفاق في السيارة الحافلة ، وكدت أناشدهؤلاء الرفاق أن يصمتوا ،  
فما أحقّ هذه الساعة بأن تكون ساعة تعبد وصلاة ، ساعة  
تأمل ومناجاة ... ذلك محرابُ الجلال أمام العيون ، فلننهل من  
روحانيته ما استطعنا أن نهل ، حتى تَغْفُرَ نفوسنا طمأنينةً  
وصفاءً ! ...

وقفتُ بنا السيارة الحافلة عند فندق ، والساعة منتصف



الحادية عشرة قبل الظهر، وصاحت بنا المضيضة تدعونا إلى طعام الغداء... أفتحسبنا هذه المضيضة الأنيسة مخللة تحشوها وقتها تشاء، بما تشاء؟ فلا ضرب عن هذا الغداء الذى دعنى إليه فمس دعمت، وليستجب لها من يستجيب.

مضيت أجدول حول البلدة جولة، فاستبان لى أهما فى مرتفع تنظر منه إلى النهر، وأنها عامرة بالخضرة، زاخرة بالغانات، كأنما هى حديقة معاقمة، وليس بها من الشوارع إلا شارع واحد صفت فيه الدور والفنادق والموانيت عن يمين وشمال.

وعدت إلى الرفاق الذين آثروا البقاء فى الفندق ليصيدوا غداء قبل أن ينتصف النهار، فإذا هم قد فرغوا من طعامهم منذ هنيهة، وإذا هم قد دعتم المضيضة إلى أن يشربوا القهوة على ربوة يقوم فى ركن منها مشرب جميل، فصعدت معهم أتملى روعة تلك الربوة التى يكسوها مرج مزهر، يتمنى المرء أن يفترشه بعض وقت، ليسعد بنومة طيبة على بساطه الوثير.

صدر إلينا أمر المضيضة بأن نفارق هذا الفردوس المومق، فانطلقت بنا السيارة الحافلة تجتاز المراعى والحقول، وإذا

الخيول فيها سائبة تمرّح ، ما تكاد تشهدنا نمر بها حتى تعدو  
وراءنا كما نتما تشترك مع سيارتنا في سباق . فأما الأبقار السّمان  
الناصعة البياض فكانت تبعثُ إلينا وإلى الخيول من ورائنا  
نظرات كلها تؤدة وجلال ، ثم لا تلبث أن تنكفي على العشب  
غير لا وية على شيء !

وأخذت أبصارنا أعواداً من الخشب ، مُقامةً كهيئة المحامل ،  
عليها من أضغان البرسيم كومات عالية ، فالسويدي يعلم أنه الآن في  
موسم الزرع والحصاد ، وفصل الدفء والإشراق ، لزام عليه أن  
بزرع وأن يحصد ، وأن يدخر من هذا البرسيم علوفةً لما شئته في  
إبان البرد والثلج والإظلام

وتابعت السيارة الحافلة انطلاقتها تنهب الطريق ، وما زال النهر  
يلوح لنا من بين الشجر ، والمرّوجُ على شاطئيه تترامى ، والدور  
الريفية تترامى لنا بشرفات لا تكاد تخلو إحداها من أصص تبرج  
فيها الرياحين ... !

وبعد لأي وقت بنا السيارة عند النهر ، في مكان قريب من

المصبّ

هنا يقول النهر لمن وقفوا على شاطئه ، ممن أهل التجارة والصناعة :

دونكم الخشب الذى احتملته إليكم ، فتسلموه ...  
فلا يلبث هؤلاء أن ينشطوا للعمل ، ولا يلبث النهر أن يودعهم بابتسامة عذبة صافية ، ثم يندفع نحو البحر ليندمج فيه ، وقد تخفف من أحماله التى كانت تضنيه .  
مثلنا أمام النهر نتملاه ، فألقينا الخشب يغطيه من مختلف مناحيه ، حتى لقد أعيانا أن نرى الماء بين هذا السطح الخشبي العائم المتلاحم ، بل لقد خيل إلينا أننا قادرون على أن نعبّر النهر بأقدامنا فى غير خشية ولا حرج .

على أن هنالك جسرا من الخشب مقاما على قوارب أو ما يشبه القوارب ، ومن هذا الجسر تفرعُ جسور صغار أخر ، ولكنها على شاكلته ، وحول هذه الجسور المتصل بعضها ببعض ، والمفضى بعضها إلى بعض ، والمتغلغلة إلى مسافة بعيدة من النهر ، نجد الخشب ساحا يدفعه العيال بمزاريقهم ليجعه وتسليمه إلى ذويه ، والنهر فى هذه المنطقة واسع العرض ، حتى ليدو كأنه المحيط

الأعظم ، مداه يفوت النظر ، وهو مقسم أقساما ظاهرة المعالم تبلغ المائة ، ولكل مشغل يجلب الخشب قسم خاص به ، وليس للنهر وراء هذه الأقسام المختكرة لأصحابها إلا تمر صغير يستأثر به لنفسه ...

ومن عجيب أن الخشب يُرمى جملة في النهر بادیء بدء مختلطاً بعضه ببعض ، وبعد رحلته الطويلة يسارع إليه ذووه ، فيتسلم كل منهم ما هو له ، آمناً أن يفقد من خشبه شيئا ، غير طامع أن يأخذ من خشب غيره شيئا ، فاسكل تاجر علامة خاصة محصورة على الخشب الساج وقد وزعت علينا ورقة تحمل هذه العلامات التي تشبه الخط الهير وغليني أو خط الاختزال .

تركنا ميناء الخشب ، إن صح أن نطلق عليه هذا الاسم ، أسوةً بالاسم المصرى المعروف : ميناء البصل ... وذهبنا نستطلع شأن المناشير التي يسمونها الطواحين ، فإذا هي تزحم البُقعة ، وإذا الخشب يجر من الأرض جرّاً إلى حيث تلتقمه الآلات المختلفة واحدة إثر أخرى ، وإذا الكتل العتيقة الضخمة قد أشبعت شقاوقشراً وتفصيلاً ، وإذا هي أشكال متباعدة بين لوح

رقيق وآخر غليظ ، مربع أو مستطيل ، طويل أو قصير ، وإذا  
النشارة تلال إلى تلال .

والخشب يخرج من هذه الطواحين مشدُباً سويّاً على أشكاله  
المرسومة له ، لتحمله مركباتُ السكك الحديدية إلى البواخر ،  
فتنقله إلى مختلف البلاد .

وأنت من هذه الطواحين في مصنع صحم تعج فيه الآلات  
وتدوّى ، ويموج فيه العمال بين جبّة وذُهوب ، ويفيم حوه بما  
يتطاير فيه من غبار المناشير ، فلم يكن في مقدورنا أن نطيل  
المكوثَ بين أرجائه ، وما أسرعَ أن انصرفنا عنه نطلبُ  
الهواء الطلق ! ...

ركبنا السيارة الحافلة ، فعبّرت لنا جسراً يعدّه القوم  
من أعظم جسور العالم طولاً وروعة موقع . إذ هو يطولُ  
حتى يبلغ الميل ويشرف على ماهرٍ من صعه الطبيعة منقطعة  
النظير .

وأخيراً عدّنا إلى قطارنا المحبوب ، تنهياً فيه لحظة عشاء  
وسهرة ، أو بالأحرى : حفلة ختام وتوديع ... فقد أكمل قطار

الشمس برناجمه ، وأتم مهمته ، وإنه لمنته إلى عاصمة « السويد »  
في العاشرة من صبح غده .

التأم الجمع على مائدة العشاء في الفندق . فإذا هم قد ارتدوا  
أنجر ما عندهم من لبوس السهرة ، وقد اختارت المضيفة ثوبا  
ورديا زاهيا زادها من بهاء وإشراق ، فأما المضيف فقد علق على  
الجانب الأيمن من صدره وساما براقا كافأته به مصباحة السكك  
الحديدية ، لما أبدى من كفاية وما بذل من مجهود .

كان الأمريكيون أكثر الجمع ، وثمة سيد كنتدى يمثل العنصر  
الإنجليزى أو الامراطورية البريطانية على الأصح ، وسيد أسبانى  
بلغ سن التقاعد الحكومى ، وسيدة فرنسية مريحة أدبر عنها  
عصرُ الشباب ، وثمة آخرون غير هؤلاء وكنا نحن المصريين  
أربعة ، رجلين وزوجتيهما .

طفقنا نطعم ... وتتابع شربُ الأنخاب ، هذه كأسٌ في  
صحبة الميمنة ، وتلك كأس في صحبة الميسرة ، وثالثة في صحبة من  
هو على مقربة ، ورابعة في صحبة من على مَبْعَدَة ، وأخرى  
في صحبة الشمل الجميع !

وشاعت بين الرفاق روحُ التأنّس والمطايبة ، وقام الخطباء  
بمتقارضون التحايا . وبرزت آلة التسجيل تُنثّيت كل ما تفرجت  
عنه الشفاء ، فلم تدع ضحكة أودُّ عابة إلا أحصّتها ، ولم تدع  
شبنًا من هفوات الخطابة إلا دَوَّنته !...

وما إن أوشكت الحفلةُ على الإلتهاء ، حتّى ألفينا المضيف يترخ  
من شُرب الانخّاب جرياً على عاداتهم في بلادهم ، وهو يقول  
في بهجةٍ عارمة :

من تمّة برنامجنا أن ينهض لتقبيل كل من ضم الحمل

من النساء !

وتعالى التصايح ، وكان المضيف في المرحلة الأخيرة من  
مراحل الشباب ، يمتاز باللاقة والظرف ، فكيف يُلام فيما  
طلب ، وقد كان حفيّا بالرفقة طوال الرحلة ، لم يدّخر وسعا في  
توفير الراحة لهم على مدى الطريق ؟

لم يعرف للمضيف هذا الحق إلا بعصر سيدات القطار  
المُوغلات في السن ، فانهلن على وجهه تقبيلًا ، كأنما  
يغتنيمن الفرصة ، وخرج الرجل من مَعْمعة التقبيل

مرصعَ الوجهِ بالوسَمَاتِ الحُمَر... وضج الجمعُ بالهتافِ  
والتصفيقِ .

وأحس السيدُ المضيفُ أن وسامه ليس في مكانه من صدره ،  
مبعثرَ نظراته يتفقده ، ونفسي تحدثني بأن أقول له :  
خفف عنك ، ولا تعباً بوسامك المفقود ، وما أحراك  
بأن تتركه لقطعة لمن يريد... فأنت الآن قد نلتَ أوسمةً من  
الفسحار ، وهديتك إياها شفاة ناعمة ، وإن كنَّ لعجائزِ  
النساء... .

تلك معاشاتهم ومداعباتهم... وفرق بين هذا وبين ما نحن  
عليه في شرقنا الديّن المتحفظ ، الحريص على العادات المتمسك  
بالنقاب... .

فاهناً أيها الشرق... . إنك حقاً مهد الفضائل ومهبط الديانات ،  
وبيك قداسة وطهارة ، وأرضك بلا ريب أرض المعاد... .



فہرس

ملحوظ

[illegible]

## أحدث مؤلفات «محمود تيمور»

### أ - مجموعات قصصية :

- ١ - كل عام وأنتم بخير
- ٢ - مكتوب على الجبين
- ٣ - نفاء غليظة
- ٥ - إحسان لله
- ٤ - شباب وغانيات
- ٦ - فرعون الصغير
- ٧ - أبو الشوارب
- ٨ - أبو على الفنان
- ٩ - زامر الحى
- ١٠ - قلب حانية
- ١١ - ناثرون
- ١٢ - دنيا جديدة
- ١٣ - نبوت الحفير
- ١٤ - تمر حنا عجب

### ب - قصص مطولة :

- ١ - كيلوباترة في خان الحليل
- ٢ - سلوى في مهب الريح
- ٣ - نداء المجهول
- ٤ - شمروخ
- ٥ - حلومر « تحت الطبع »
- ح - صور وخواطر :

- ١ - بلاغ وغضون
- ٢ - إلى الإنسان

٣ - شفاء الروح

٤ - عطر ودخان

د - رحلات :

١ - أبو الهول يطير

٢ - شمس وليل

هـ - قصص تمثيلية :

١ - سفر قریش

٢ - سهاد أو اللحن النائه

٣ - المنقذة وحفلة شاي

٤ - الخبأ رقم ١٣

٥ - المزيفون

٦ - فداء

٧ - هوالى

٨ - أبو شوشة والوكب

٩ - قنابل

١٠ - حواء الخالدة

١١ - اليوم غمر

١٢ - ابن جلا

١٣ - أشطر من إبليس

١٤ - كذب في كذب

و - دراسات لغوية وأدبية :

١ - مشكلات اللغة العربية

٢ - دراسات في القصة والسر



